

38

نابليون على فراش الموت

الدكتور مصطفى الديوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

المكتبة الثقافية
٣٦١

نابليون على فراش الموت

الدكتور مصطفى الديوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٢



جلس على صخرة فى الجزيرة النائية واخذ يفكر :
أهو الماضى السحيق او المصير المجهول ؟

مقدمة الكتاب

كان نابليون بونابرت حلم صباى ! . كنت أقرأ كل ما يكتب عنه ، وافرح لانتصاراته ، وأحـزن لهزيمته فى واترلو ثم نفيه الى جزيرة « سانت هيلانه » حيث سـامه حاكمها « هدسون لو » كل أنواع العذاب حتى قضى نحبه ذليلا مهيض الجناح .

وخطر ببالى يومئذ أن أكتب رواية عاش أبطالها خلال عهـد حملته على مصر ، وسـميتها « السر المكنون » . ونشرتها فى مجلة أسمها « النديم الروائى » كانت تتبع مؤسسة المقطم والمقتطف ، ويدير تحريرها المرحوم الأستاذ اسـحق صروف ، وكانت ادارتهـا ومطبعتها فى شـارع الترجمان رقم ٤ المتفرع من شارع محمد على قرب العتبة الخضراء وكان يكتب تحت اسم المجلة :

يصدر (أى النديم الروائى) يوم الأحـد من كل أسبوع ، وعدد صفحاته أربعـون صفحة ، وثمن النسخة ١٥ مليمـا ، وقيمة الاشـتراك ١٠٠ قرش فى السنة ، وللطلبة ٦٠ قرشا وفى الخارج ١٢٠ قرشا صاغا .

والحق أن هـذه المجلة كانت منبرا ظهر على درجاته الأولى كثير من الأدباء الشبان فى ذلك الحين ، أذكر منهم الأساتذة : سليمان حزين ، وعادل الغضبان واللواء أ · ح عبد الرحمن زكى ، وعبد الرحيم طه ، والشافعى البنا ، وكامل البنا ·

وكان المرحوم اسحق صروف ذكيا لماحا ، رغم ما كان يبدو عليه من طيبة القلب المفرطة · وقد بدأت أسهم فى تحرير مجلتـه وأنا طالب فى السنة الثانية الثانوية · وذلك عن طريق المراسلة ، اذ ما كنت أجرؤ ان تطـأ قدماى عتبة دار المجلة المتواضعة · وكان طابع البريد من فئة ٥ مليمات يكفينى مشقة الذهاب والاياب والمواجهة ، وكنت أتخيل صاحب المجلة عملاقا ترتعد الفرائص مهابة له ولم لا وهو الذى بيده أن يقبل أو يرفض منتجـات أفكارى ؟ ثم ما أدرانى كيف تكون مقابلته لى عندما يرانى شابا يافعا ألبس سروالا يكاد يكون قصـيرا · وبقيت صلتى عن طريق المكاتبة حتى وصلت الى السنة الثالثة من المرحلة الثـانوية ، واقتربت كتاباتى من مسـتوى النضج ، وكتبت قصة مسلسلة تخيلت وقوع حوادثها أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر · وقد كتبتها اذ ذاك كاملة من الألف الى الياء ، وأرسلتها في ظرف بدا لى ضخما ، وكلفنى من طوابع البريد المسـجل ما أرهق ميزانيتى المتواضعة ، ويظهر أن صاحب المجلة المرهف الحس أراد أن يكافئنى أدبيا ، فنشر فى جـريدة المقطم المسـائية اعلانا

بشر فيه قراء المجلة بأنها ستبدأ نشر « سلسلة من روائع تأليف الكاتب الألمعى الشهير مصطفى أفندى الديوانى » أى أنه أضفى على صفة الشهرة وكنت منها بعيدا جـدا ، ومنحنى لقب الافندى وكان العرف اذ ذاك أن هذا اللقب لا يكون حقا مكتسبا الا لمن يحصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة الآن) .

وظهـرت السلسلة فى ستة أعداد متوالية عن المجلة تحت عنوان « السر المكنون » . وقد حرصت على نشرهـا في كتابى رحلات العمر بحذافيرها كما كتبتها في عام ١٩٢٢ دون أن أغير منها حرفا ، لعلى بذلك أجذب الى وجه القارىء بسمة استطراف أو أثير فيه لمحة اعجاب بما كان يجول فى خاطرى من احتمالات للنمو والازدهار فى مجالات الكتابة بمرور الأيام .

ويجب أن أعترف بأننى كدت أندفع فى هـذا المجـال البديع الى أقصى مداه ولم لا وقد أصبح لى قراء ومعجبون يطلبون منى المزيد كلما تراخيت ؟ ، ولكنى ما كدت أطأ عتبة باب كليـــة الطب فى عام ١٩٢٣ بعد حصــــولى على (البكالوريا) حتى توقفت عن الكتــــابة للمجلة تماما ، ولما بعث الى مديرها المرحوم اسحق صروف بخطاب رقيق يلح على فيه أن أستأنف الكتابة ، رددت عليه فى تصميم عجيب : لقد قررت أن أكون طبيبا ! .

وكان هذا آخر عهدى بدار النديم الروائى الكائنة

فى رقم ٤ بشارع الترجمان المتفرع من شارع محمد على بجوار العتبة الخضراء ٠

وبعد بضع سنوات ، قرأت وأنا طالب فى كلية الطب عن وفاة المرحوم صاحب المجلة ـ التى اختفت بوفاته . فطفر الدمع من عينى الشـــابتين ، اذ كان مهذبا رقيق الحاشية ، خبيرا فى بث روح التشجيع فى الناشـــئين . يرضيهم بالكلمة الطيبة ، ويفتح لهم صفحات مجلته فى ضيافة سخية سمحة ، فيدخلون فيها أفواجا ، ثم ينتقى هو منهم من يلمح فيه استعدادا ولو ضئيلا ٠

وبقيت عند كلمتى للمرحوم اسحق صروف ، فامتنعت عن الكتابة حتى تخرجت فى كلية الطب ، ثم سافرت فى بعثـــة للتخصص فى أمراض الأطفـــال ، بعد أن قضيت بقصر العينى حوالى أربع سنوات ، وعدت من البعثة لأعمل مدرسا فى عام ١٩٣٦ ٠ ثم اجتذبتنى هواية الكتابة من جديد فاتجهت الى هوامش الطب وأخرجت كتاب « حيـــاة الطفل » وهو الكتاب الذى دخل قلوب الألوف من الأمهات خلال الثلاثين سنة الأخيرة ، وأعيدت طبعاته عشر مرات حتى الآن ٠

والواقع أننى عندما حاولت تأليف ذلك الكتاب كنت أجهل التفاصيل الصغيرة اليومية لحياة الطفل ، مثل الأكل والحمام والنزهة وغيرها ، رغم أننى كنت حاصلا على أعلى الشهادات فى أمراض الأطفـــال وطرق علاجهـــا ٠ ولكنى

اضطررت الى النظر فى المراجع العديدة فى هذا الشأن وأخذت أنهل منها ما يفيدنى كوالد ينتظر طفله الأول ، وكان لايزال فى عالم الغيب حينذاك ، وهو الآن الدكتور خليل الأستاذ بقسم الأطفال بكلية الطب فى جامعة الأزهر .. ومن هنا وجد الكتاب طريقه الى قلوب الأمهات فى سهولة ويسر ، وأشتد أقبالهن عليه على مدى الأعوام ، مما يغتبط له قلب كل مؤلف .

وهكذا ، كان هذا الكتاب بداية الرجوع لهوايتى القديمة هواية القلم ، وكانت مجلة « الثقافة » قد ثبتت أقدامها فى عالم الصحافة ، فدلفت من بابها فى هدوء وأخذت أكتب لقرائها الذين كانوا ينتمون الى طبقة خاصة ، أى أنها لم تكن مجلة كل قارىء ، وهذا ما كنت أبغيه لأنى كنت أفضل الانزواء وأنا أستعيد هوايتى حتى لا يعرفنى الجمهور ككاتب ، وأظل فى نظره أولا وأخيرا طبيب الأطفال الذى يأخذ بأيدى فلذات أكباده الى بر الأمان .

وكان المرحوم الدكتور أحمد أمين ، رئيس تحرير الثقافة ، يشجعنى ويوافق على نشر مقالاتى دون تردد . وحدث فى سنة ١٩٤٣ والحرب العالمية الثانية مشتدة الوطيس أنى كنت اصطاف برأس البر ، فى عشة مجاورة لعشته رحمه الله . وكان معى كتاب أقرؤه عن حياة نابليون بونابرت ، من تأليف جوزيف أبوت ، واجتذبنى من بين صفحاته التى جاوزت الألف صفحة ، ذلك الجزء

الذى يصف نهاية نابليون منذ فشله فى حملة روسيا الى وفاته منفيا فى جزيرة سانت هيلانه · فأخذت أترجمها على حلقات ، وكنت كلما انتهيت من حلقة ذهبت بها الى الدكتور أحمد أمين فى عشته ، فأجده جالسا فى هدوء على كرسى مريح ينظر نحو البحر مستنشقا هـواءه العليل ، ويدعونى الى أن أبقى معه بعض الوقت أرتشف مرطبا أو فنجانا من القهوة ، ثم أناوله وريقات الحلقة فيتقبلها فى هدوئه وأدبه المعروفين شاكرا اسهامى فى مـلء صفحات المجلة ، ثم يرسلها للنشر فيها مع بريده اليومى الخاص

كان لابد لى من الاطالة لأربط بين المرحوم اسـحق صروف الذى فتح لى مجلة « النديم الروائى » على مصراعيها فى عامى ١٩٢٢ و ١٩٢٣ وبين المرحوم الدكتور أحمد أمين الذى رحب بمحاولاتى المتواضـعة فى تأديب الطب وغير الطب ، وخصص فى من صفحات مجلة « الثقافة » ما جعلنى أسرح وأمرح فى زهو وافتخار بين البارزين فى ذلك الحين ·

وظلت الأيام تجرى وأنا آلهث معهـا ، واعجابى بنابليون لا يطفئه عمر السنين ·

وفى نوفمبر ١٩٦٨ انتهزت فرصة وجودى ببروكسل عاصمة بلجيكا حيث ذهبت لزيارة ابنتى مائسـة وزوجها الدبلوماسى محمد شلقامى · ففكرت فى زيارة ضـاحية واترلو وهى تبعد عن بروكسل حـوالى الاثنين والعشرين كيلو مترا، واصطحبنى في سيارته صديقى المرحوم لطفى جاد

الحق مستشار السفارة ، وكان اليوم مشمسـا جميـلا ، وكنت كلما اقتربت من مكان المعركة تخيلت صوت نابليون يرن فى أذنى وهو يصيح فى جنوده (الى الأمام) فيطيعونه طاعة عميـاء غير مبالين بأنهم قد يلاقون حتفهم من عـدو ينتظرهم فى الجانب الآخر ، ولما وصلت الى مكان المعركة خفق قلبى بعض الشىء وانتابنى وجوم أخذ يتلاشى تدريجيا كلما توغلت السيارة فى شوارع الضاحية الجميلة التى بدت فى حياد غريب رغم تاريخهـا الحافل ٠٠ فالمراعى لا يدرك مداها البصر ذات اليمين وذات اليسار وتمرح فيها العجول والخراف ، غير عابئة بأن المروج الخضراء التى تدب على أرضها كانت مشهدا لمعركة فاصلة من أروع معـارك التاريخ وهى معركة واترلو ٠ ورايت بعض المنازل والمبانى على جانبى الشارع الرئيسى ، قيل لى : ان تاريخها يرجع الى أيام المعركة ، وقد تحول بعضها الى متحف أو دار للسينما لا تعرض الا افلاما عن نواح مختلفة من حيـاة بونابرت ، وتجد كالعادة فى مثل هذه البقع السياحية مقاه على درجة عاليـة من النظافة يمكنك أن تتنـاول فيهـا المرطبات والمشروبات البريئة ٠

ومتى خرجت من المقهى الكبير واتجهت يسارا يلفت نظرك مبنى كبير بواجهته استدارة وقد كتب عليها بخط كبير (بانوراما معركة واترلو) ، ويدفعك حب الاستطلاع الى الدخول مقابل قليل من الفرنكات لترى معجزة فنيـة كبرى ٠٠ فالمعركة التاريخية الكبرى رسـمت تفاصيلها

بالألوان الطبيعية على شـــكل لوحات بلغت من الضخامة لدرجة أن كل ما ظهر فيها من آدميين وخيول كان بالحجم الطبيعي ، وكانت الصور مثل الحيـــاة تماما ، فالخيول النافقة والقتلى من الجنود والضباط تبدو على تقاطيعهم دون استثناء كل ما في الموت من جلال ، وقد تبرز عيون بعضهم من المحاجر منبئة بأن الفزع الهائل كان آخـــر تفاعلات حياتهم وفي ناحية بعيدة من البانوراما ترى نابليون يتقدم راكبا جواده وحوله قواده ليحاول المحاولة الأخيرة قبل أن يأفل نجمه الى الأبد ، وتراه من بعيد مطاطىء الرأس وقد طغى الأسى على كل تقاطيع وجهه الصارمة في هدوء . وكنا نستعين بالنظارات المكبرة لرؤية هذه المناظر التي بلغت روعة اخراجها ودقته للدرجة التي يخيل اليك معها أنها تبعد عنك أميالا وهي في الواقع أقرب اليك من هذا بكثير ، ناظرىك ذات يمين وذات يسار مدققا فاحصا حتى تخرج من هذا المبنى الضخم لترى النور من جديد يؤنسك بعد انقباض .

ولاتكاد تفيق من فيض الذكريات حتى تلمح خلف هذا المبنى نصبا تذكاريا فريدا في نوعه وهو شبه هرمي كسيت جميع أضلاعه بالخضرة الدائمة ويبلغ ارتفاعه مائة متر على الأقل وعلى قمته تمثال أســد كبير رفع ذيله الى أعلا ووضع قدمه اليمنى على كرة كبيرة من البرونز وكأنها العالم الخاضع للقوة ، ويمــكن الصعود الى هـــذه القمة بوساطة سلم تبلغ درجاته المئات لمن يســـمح له شبابه

وسنه بالقيام بهـذه الرياضـــة البهيجة المليئة بالاثارة والذكرى .

وفى طريق العودة الى بروكسل سألت نفسى قائلا : هل ارتوى عليلك أيتها النفس المتعطشة دائما الى تاريخ رجل أحلامك ؟ لقد تسمرت قدماى أكثر من مرة وأنا أقف تحت الحاحك عند تابوته الأحمر القانى فى تلك الهــوة العميقة الكائنة تحت قبة (الانفاليد) ورجعت بك القهقرى متتبعا تفاصيل نهايته المحزنة فى منفاه حتى نقل جثمانه الى فرنسا التى أحبها من كل قلبه وذلك في كتابى هذا الذى أسميته « نابليون علي فراش الموت » . وهانذا انتقل بك الى حيث قلم التاريخ أظافره الى الأبد ، ولقد رأيت خـلال عيناى كيف أصبح ميدان المعركة ضاحية دائمة الخضرة تمرح فيها الأغنام بعد أن كانت ميدانا للبطولة والفروسية .

أيتها النفس الوالهة غير المستقرة ، لابد أن لى ولك مع رجل أحلامك عودة قد تكون أقرب مما تظنين .

والآن أقرأ معى بعض ما اقتبسته من كتاب (جوزيف ايوث) عن حياة بونابرت فى أيامه الأخيرة بسانت هيلانه ، نستعرضها سويا بمناسبة مرور مائة وستين عاما على وفاته بجزيرة سانت هيلانه .

« بدء النهاية »

حملة نابليون على روسيا

(لما آن للنجم ان يأفل ، وللشعلة الدائمة ان تخبو ، اضله الوحي ان يذهب الى روسيا حيث الخير العميم والنعيم المقيم فلم يجد الا البرد والموت والدمار ٠٠)

غادر الامبراطور ميناء دانتزج فى ١١ يونيو ١٨١٢ ووصل الى كونجسبير ـ فى اليوم التالى وهناك أشرف على تجهيز المؤن والأغذية اللازمة لجيشه خلال زحفه فى روسيا الواسعة الارجاء وكان يهتم بأدق التفاصيل ويملى ارشاداته طول الليل والنهار ويعززها بقوله « يجب ان نحمل كل شيء معنا ٠ ان الالوف المؤلفة التى فى حملتى لا يكفيها قمح بلد ما تحتله أو تستقر به ولا ما فيه من طعام ٠ فما لم نتخذ حيطتنا عرضنا الجيش لجوع محقق ان عاجلا أو آجلا » ٠

وكان قوام الجيش أربعمائة وعشرين الف رجل نظموا فى ثلاثة عشر فيلقا عدا الحرس الامبراطورى وكان

يصحبها بضعة آلاف من عربات الذخيرة وقطعان لا حصر لها من الثيران وألف وثلاثمائة واثنان وستون مدفعا وعشرون ألف عربة من مختلف الاحجام ومائة وسبعة وثمانون ألف حصان . وتحركت هذه الجحافل كتلة واحدة حتى وصلت الى ضفة نهر (النيمن) وكان الجو بديعا والسماء صافية والحقول خضراء مزدهرة وكانت الساعة الثانية صباحا عندما وصل نابليون الى بلدة (كاونو) فأخذ ينظر الى الفضاء الواسع أمامه على الضفة الأخرى من النهر فشعر بدهشة غريبة اذ لم يواجه الا ظلاما دامسا وكان كل شيء يدل على ان أهل هذه المدائن قد هجروها . والواقع ان القيصر اسكندر كان قد اصدر تعليماته بأن يتقهقر الجيش بانتظام أمام العدو وأن يدمر فى أثناء انسحابه المنتظم جميع الجسور والقرى والمدائن فلا يترك للعدو سوى الجوع والعراء والحر اللافح أو البرد القارص .

ونصبت الجسور فى ثلاثة مواقع من النهر وأخذ الجيش يعبره فى نظام ودقة والامبراطور يراقبه عن كثب وبرغم حرصه على أن لا يفقد جنديا واحدا فى أثناء عبوره النهر فان بعض الفرسان البولنديين حاولوا عبور النهر وهم على ظهر جيادهم فاكتسحهم التيار وقبل أن يبتلعهم اليم نظروا خلفهم وألقوا نظرتهم الأخيرة على نابليون وصاحوا وهم فى النزع الاخير « يحيا الامبراطور ! » . ومضى الجيش فى زحفه حتى وصل الى ضواحى مدينة

(فيلنا) فى اليوم السابع والعشرين • وكان ـ القيصر الكسندر فى حفلة راقصة فى قصر أحد النبلاء فلما سمع أن نابليون يجتاز نهر (النيمن) أسرع الى مغادرتها بعد ان أصدر أوامره بأن تحرق جميع ممتلكاته ومخازنه بما فيها حتى لا تقع فى أيدى العدو •

ودخل نابليون مدينة (فيلنا) فى ٢٨ يونيو فاستقبل استقبال الغزاه الفاتحين • لان هذه المدينه كانت عاصمة ذلك الجزء من بولندا الذى اغتصبة الروسيون• فعد أهلها الامبراطور محررهم من ربقة الاستعباد ومعيد مجد مملكتهم التى اقتسمتها الدول المحيطة بها •

ومكث نابليون فى هذه المدينة ثمانية عشر يوما نظم فيها شئون جيشه واعتنى بأمر الأرض المحتلة فأقام فيهم حكما صالحا وهو ينتظر وصول مؤن لجيشه الكبير • وعلى الرغم من أنه يخض معركة ما فانه فقد عشرة آلاف حصان نفقت جوعا وتعبا وامتلأت المستشفيات بالمرضى من رجال جيشه حتى لقد لجأ اليها خمس وعشرون ألفا من الجنود •

وفى أثناء مقامه بهذه المدينة أرسل اليه القيصر رسولا ليعرض عليه استعداده ـ للدخول فى مفاوضات للصلح على شرط أن يتقهقر نابليون بجنوده الى ما وراء نهر « النيمن » فرفض الامبراطور على الفور وأظهر استعداده للمفاوضة على شروط معقوله • ولكن القيصر لم

يسعه الا الرفض نظرا لارتباطه بمعاهدات مع انكلترا حددت فى ذلك الوقت حريته فى العمل ٠

ومضى نابليون فى تقدمه والروسيون ينسحبون أمامه تاركين وراءهم الخراب والدمار والنار فى كل مكان فكانت جياده تنفق لعدم وجـود العلف اللازم وجنـــودة يفنون جماعات جماعات من الجـــوع ، وكان الجيش قد توغل خمسمائه ميل فى داخل الاراضى الروسية بدون ان يلقى مقاومة أو عدوا ٠ فجمع نابليون مجلس الجيش فأشـــار عليـه معظم أركان حــربه ان يوقف الزحف حتى حلول الربيع ٠ ولكنه رفض هذا الاقتراح رفضا حاسما وعزم على مواصلة الزحف حتى يحتفظ بسمعته بين رجال جيشه وأفراد الشـــعب الفرنسى الذين كانوا ينتظرون فى لهفة وجزع نتيجة الحملة الروسية ٠ وكان نابليون يعلم أن القيصر قد جمع قواته وعتاده عند مدينة سمولنك استعدادا لموقعة فاصلة ٠ فاستأنف زحفه فى يوم ١٣ أغسطس وكان الحر شديدا لافحا فمات كثير من جنـوده ونفق كثير من خيله ٠ وبعد رحلة شاقة مضنية وصل الى أبواب سمولنك مساء يوم ١٦ اغسطس فاعتلى نابليون ربوة عالية وأخذ يرقب بمنظاره جموع العدو المحتشدة فى نظام واستعداد فصاح وهو مغتبط من أعماق قلبه « ها قد وجدتهم أخيرا » وحدث قتال بين طلائع الجيشين ، نجح الروس فى أثنائها فى اخلاء المدينة وتدمير مستودعاتها ٠ وبعد منتصف الليل فوجىء الفرنسيون باندلاع حرائق هائلة أتت على ما بالمدينة

من قصور ومنازل ومخازن وكنائس . فنظر نابليون فى سكون وحزن الى هذا الحريق المخيف وقال « ان هذا المنظر يشبه ما يراه سكان نابولى عندما يثور بركان فيزوف » وعندما دخلت فرقة فرنسية المدينة فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل لم تجد فيها جنديا روسيا واحدا بل بلغت قسوة الروسيين فى تقهقرهم ان تركوا جرحاهم وموتاهم طعمة للنيران . وكان أول أمر اصدره نابليون هو العناية بهؤلاء التعساء والرفق بهم ما أمكن . وعندما لاح الفجر صعد الامبراطور الى قمة احدى القلاع وسدد منظاره الى الجيش المنسحب فوجده قد انقسم قسمين أحدهما اتجه شمالا فى طريق بطرسبرج والآخر نحو موسكو . فأصدر أوامره بملاحقة العدو ونصب المارشال (ناى) قائدا على الجيش المتجه نحو موسكو .

وبينما نابليون يتجول فى انحاء المدينة متطلعا الى خرائبها ونيرانها المندلعة تقدم منه كاهن روسى تخلف فى المدينة ليعنى بالجرحى والنساء والأطفال وفي نبرات تنم على الشجاعة حمل نابليون تبعة ما حل بالمدينة من خراب ودمار فانصت اليـــه الامبراطور باحترام حتى انتهى من حديثه ثم سأله « هـــل أصيبت كنيستك أيهـــا الاب بضرر ما ؟ » .

فاجابه القس « ان ارادة الله فوق ارادتك أيهـــا الامبراطور ان الله حفظ كنيستى ليأوى اليها التاعسون الذين حرقت بيوتهم وأصبحوا بلا مأوى » .

فتأثر الامبراطور وقال « انك لعلى حق أيها الأب . ان الله سيرعى ضحايا هذه الحرب الغشوم وسيكافئك على شجاعتك وصبرك . أذهب أيها الكاهن الى كنيستك وبلغ جميع زملائك انهم فى امان لانهم يخدمون قضية السلم التى كلفتهم العناية الالهية رعايتها . اننا جميعا مسيحيون. وربكم هو ربنا .

وصرف نابليون الـــكاهن بكل احترام وأمر بعض جنــوده بمرافقتـــه الى كنيسته . ولما رأى اللاجئون فى الكنيسة الجنود المرافقين للكاهن صرخوا فزعا ورعبـــا فطمأنهم القس قائلا : « لا تخافوا يا أولادى لقـــد رأيت نابليون وتكلمت معـــه انه بشر مثلنا ويعبد الاله الذين نعبده . أن حربه حرب سياسية وليست بحرب دينية . انه فى نزاع مع قيصرنا ، وجنوده تحارب جنودنا . انهم لا يذبحون النساء والأطفال كما قيل لنا » .

وتابع نابليون مطـــاردة الجيش المتقهقر . وبرغم انتصاراته المتوالية فقد استمر الروسيون فى سياســـــة التخريب والتدمير . فأخـــذت الجيوش الفرنسية تعانى الأمرين لقلة المئـــونة والطعـــام والمـأوى . وازدحمت المبـــانى التى نجت من فعــــل النيران بآلاف الجرحى والمرضى . وكان الامبراطور فى حالة يأس شـــديد ، ان النكوص يعرضه لسخرية أوروبا والتقـــدم لا يمليه الا القنوط ، ومع ذلك صمم على مطاردة الجيش الروسى حتى موسكو بجيشه الجائع العارى تقريبا ولم يكن يخطر له ان

القيصر الكسندر سوف يجرؤ على حرق موسكو بآثارها الخالدة ومجدها التليد وسكانها البالغ عددهم ثلاثمائة ألف نسمة .

وكان التقدم بطيئا ومضنيا . وشنت العصابات الروسية حربها على الجنود المنكهين وأقامت كل عقبة ممكنة فى سبيل الجيش التعس حتى اذا كان يوم ٤ سبتمبر وصلوا الى مدينة (بورودينو) حيث صادفوا أول مقاومة جدية ، اذ ترصدهم جيش قوامه مائة وسبعون ألف جندى مجهزين أتم تجهيز ومستعدين لبذل آخر قطرة فى سبيل حماية الطريق الى موسكو . وفحص نابليون جموع العدو المحتشدة عن بعد وأدرك بنظرته الفاحصة مواطن الضعف التى يجب أن يسدد هجومه اليها ليوقع الارتباك فى صفوف العدو . ونصبت الخيام وأخذ الجيش يتأهب للهجوم .

وجلس نابليون فى خيمته يفكر فيما قد يأتى به الغد ، واذا برسول يحمل اليه خطابا وصل فى تلك الساعة من زوجته (مارى لويز) ومعه صورة لوالده العزيز . وكان الفجر يوشك ان ينبلج وكان نابليون يتوقع معركة دامية فاصلة عند انبلاجه ، ولكن ذلك لم يشغله عن استقبال الرسول فى الحال فأخذ منه الرسالة بلهفة عظيمة وحالما وقع نظره على ولده المحبوب انهمرت الدموع من عينيه . وكانت الصورة تمثل الطفل وهو يلعب فى مهده وأمامه كرة وكأس . وأراد الامبراطور ان يشرك معه

ضباطه وجنوده فى سروره ونشوته فقام من مقعده ووضع الصورة على كرسى خارج الخيمة • فتجمع حولها الضباط والجنود ونظروا اليها فى سكون مقابلين بين حالتهم الرثة المتعبة وبين ما تسعد به تلك الطفولة البريئة من هدوء وراحة بال • ثم أمر نابليون ـ سكرتيره بادخالها ثانية الى الخيمة وقال فى حزن « خذها الى الداخل وحافظ عليها • يجب ان لا تقع عيناه على ميدان قتال وهو فى هذه الطراوة » •

وحاول نابليون ان ينام قليلا ولكن تعبه وجزعه حالا دون ذلك واصابه عطش شديد وعبثا حاول ان يروى غليله • وما ان بزغ الفجر وانقشعت السحب حتى امتطى نابليون صهوة جواده ونظر الى الشمس المشرقة فى انشراح وأمل وقال لمن حوله « اننى أرى شمس واسترليتز » وكانت معركة حامية كلف النصر فيها نابليون غاليا، فقد فقد ثمانية من أعظم قواده من بينهم كونت كولينكور • وما جاء يوم ٨ سبتمبر حتى ملك نابليون ناصية الموقف فأحتل المدينة بينما بدأ الجيش الروسى فى التقهقر نحو موسكو • ولم يفرح نابليون بتلك النتيجة لانه فقد فى تلك المعركة ثلاثين ألف جندى وثلاثة وأربعين من قواده الذين لازموه فى انتصاراته السابقة بين جريح وقتيل ، وتخيل حزن اليتامى والأرامل والوالدين الذين فقدوا اعزاءهم فى تلك المعركة الدامية وثوب الحداد الذى سوف تلبسه فرنسا لضخامة الخسارة وكثرة الضحايا •

ومضى نابليون في زحفه حتى وصـــل الى أبواب موسكو ظهر يوم ١٤ سبتمبر وبينما هو معتـــل صهوة جواده أمسك بمنظارة وأخذ يتطلع من بعيد الى موسكو الخالدة بقبابها ومآذنها وصاح من قلبه قائلا « يا الهى ! ها هي ذى عاصمة القياصرة المشهورة » وظن الجنــــود البؤساء ان متاعبهم قد قاربت الانتهاء فأخذوا يصيحون بدورهم « موسكو ! موسكو ! » وأسرعوا فى التقدم نحو المدينة ولكن عجبهم كان شديدا اذ لم يلاحظوا أثرا مـا للحياة أو الحركة وجاءتهم الاخبار من فرق الكشــافة أن الروسيين قد هجروا المدينة · ولم يخطر لنابليون ان النية مبيتة على اشعال النار فيها بالرغم من ان معظم سكانهـا قد أرغموا على اللجوء الى الغابات المجـــــاورة حيث هلك كثيرون جوعا وبردا ، بينما لحق الباقون بالجيش المتقهقر · وكان الانسحاب سريعــا حتى ان السيدات تركن حليهن وأدوات زينتهن فى أماكنها ، وخلف رجال الأعمال أوراقهم ومجلداتهم ومستنداتهم على المكاتب وفى الادراج ·

وعين نابليون (موريتيه) حاكما على المدينة · وفى الصباح انتقل الى قصر الكرملين واتخذه مقرا وكتب الى القيصر الكسندر يعرض عليه صلحا شريفـــا مذكرا اياه بصداقتهما القديمة · وأخذ الجنود يجولون فى انحــــاء المدينة المهجورة · واحتلوا قصورها الفخمة واتخذوا منها مساكن لهم ·

وبقى بالمدينة حوالى العشرين ألفا من احط طبقات الروس وعشرة آلاف مسجون أطلق سراحهم قبل انسحاب الجيش فأخذوا يعدون العدة فى الخفاء لتدمير المدينة واحراقها فتسللوا الى اقبية الكرملين حيث كان يقيم نابليون وأركان حربه والى جميع القصور والابنية التى يقيم فيها الفرنسيون ودسوا فيها سرا مقادير من البارود تكفل لهم الانتقام من محتليها فى الوقت المناسب • ثم دمروا خزانات المياه وأنابيبها وعطلوا أدوات اطفاء الحريق وقد انتهز هؤلاء الروسيون فرصة الهرج الذى ساد عند دخول الفرنسيين المدينة ودبروا خططهم دون أن يلحظهم أحد •

وأوى نابليون الى فراشه فى منتصف ليل ١٦ سبتمبر ١٨١٢ وهو فى أشد حالات التعب وشرود الفكر وانشغال البال • وكانت العواصف تهب بشدة • وفجأه امتلأت الشوارع بتلك الصيحة المخيفة التى طالما خشيها نابليون الا وهى « النار ! النار ! » واندلعت ألسنة اللهب فى شرق المدينة وسمع دوى الانفجار فى كل مكان فعصفت بالمنازل والقصور وأودت بحياة من فيها • وشوهدت منازل كثيرة وهى تتطاير فى الهواء من هول الانفجار • واهتزت ارجاء المدينة فى شبه زلزال مخيف ، أو بركان يقذف حممه • وساعدت العواصف على امتداد ألسنة النار فى جميع انحاء المدينة فتحولت المدينة فى مدة قصيرة الى جحيم •

واستيقظ نابليون من نومه وهو جزع مضطرب وأخذ يذرع غرفته جيئة وذهابا يملى أوامره بينما ينظر فى يأس واضطراب الى النيران المندلعه . وكان قصر الكرملين تحيط به حدائق واسعة وأسوار عالية تحول دون وصول النار اليه . فأخذ نابليون يتمتم قائلا « يا له من منظر سخيف ايا الهى ! هل تذهب جميع هذه القصور الفخمة طعمة للنيران . يا لهم من قوم قساة ! انها أساليب وخطط وحشية».واستمرت النيران طيلة يوم ١٧ سبتمبر وساعدتها الزوابع على الانتشار .

وأخيرا وصلت النيران الى قصر الكرملين وأحاطت به من كل جانب حتى بدأ الهرب منه لأول وهلة فى حكم المستحيل وأخذ الامبراطور وحاشيته يبحثون عبثا عن مخرج لهم من هذا الجحيم وقد كادوا يختنقون بفعل الدخان والنار . وكانوا كلما ظنوا ان الفرج قريب اندلع ستار من اللهب فسد طريقهم . وأخيرا وجدوا طريقا ضيقا متعرجا اضطروا الى اقتحامه بالرغم من اندلاع النيران على جانبيه. ولكن ما الحيلة وقد كان ذلك مخرجهم الوحيد من موت محقق . واستمروا فى سيرهم والدخان يفعل فعله فى عيونهم وحناجرهم . وفجأه وقف مرشدهم وقال انه لا يعلم الى أى طريق هم متجهون ، فأسقط فى أيديهم وظنوا ان النهاية قربت وأسلموا أمرهم الى القدر . ووقف نابليون فى هدوء وسكينة يفكر فى طريقهم للخروج من هذا المأزق وفجأه ظهر المارشال (دافوست) ، وكان برفقة بعض

الجنود يبحث عن مولاه ، فما كاد يلمحـــه نابليون حتى احتضنه بشوق ولهفة ثم تابع معه السير الى خارج أسوار المدينة حيث لجأ الى قصر بتروفسكى على بعد ثلاثة أميال من المدينة ٠

وانسحب الجيش الفرنسى من المدينة وعســكر فى الفضاء الواقع حولها ٠ وكان الجزع والجوع قد أخذا منه كل مأخذ ٠ وكان الشتاء يقترب ببرده القارص وقد حرمهم حريق موسكو مأوى يلجأون اليه عند اشـــتداد البرد ٠ وكان يفصلهم عن فرنســـا المحبوبة آكثر من ألفين من الاميـــال ، فكان الموقف على العمـــوم داعيا الى اليأس والقنوط ٠

وأخذت النيران تميل الى الخمود ، ونجا جانب كبير من الكرملين من فعل النار فعاد نابليون اليه مع حاشيته فى يوم ١٨ سبتمبر ٠ وهو ينتظر وصول رد من القيصر الكسندر على خطابه ولما لم يصله الرد أرسل مندوبا من قبله لمقابلة القائد العام الروسى (كوتوسوف) فقابله هذا بفتور ووعده بمقابلة مولاه القيصر ليعرض عليه خطـــاب نابليون ٠

وتحت تأثير هذه العوامل المختلفة دعا نابليون مجلس أركان حربه للتشاور ، وبعد مناقشـــات تاريخية استقر الرأى على الانسحاب من روسيا ٠

مكث نابليون وجيشه فى موسكو مدة أربعة أسابيع بعد احتلالها • ولم يأل جهدا خلال هذه المـدة فى اعادة تنظيم جيشه واقرار النظام بعد الفوضى التى ـ أدت عقب حريق موسكو الى تدميرها • ما أكثر الليالى التى قضاها وهو يعمل على راحة جنده وخاصة الجرحى منهم ويراقب فى قلق تطور الجو المنتظر فراجع التقارير الجوية عن الأربعين السنة التى سبقت الحملة ليستوثق بنفسه من ميعاد بدء الشتاء الحقيقى فى روسيا وكان يحدوه أمل الصلح مع القيصر ولكنه تبين الخطر فاستفحل همه وشـــحب لونه ونقص وزنه •

وبحلول شهر أكتوبر بدأت أوراق الاشجار تتساقط تاركة الاغصان عارية تتلقفها رياح الشمال العاتية ، وبدأ الثلج والصقيع قبل ميعاده الطبيعى بثلاثة أسابيع مما زاد فى هم الامبراطور وتصميمه على الاسراع فى الارتمـاء فى احضان بولندا ، بمدنها العامرة حيث يجد الجنـــود نارا وطعاما ومأوى • وبالرغم من ان المسافة الى بولنده حوالى ألف ميل الا انه صمم على القيام بهذه المغامرة معتزما ان يسلك طريقا آخر غير الذى ســـلكه عند زحفه أملا ان يصادف مدائن عامرة بدل الخرائب والاطـلال والحرائق التى تركها الروس وراءهم عند تقهقرهم •

وبدأ التقهقر فى يوم ١٨ أكتوبر ١٨١٢ • وعهـــد نابليون الى مورتييه ـ وكان قد عينه حاكما على موسكو ـ

فى حماية مؤخرة الجيش وترك معه ثمانية آلاف جندى وخرج الامبراطور من قصر الكرملين فى فجر ١٩ أكتوبر وكانت السماء صافية والهواء باردا منعشا والنجوم تتألق • ولما خرج نابليون من حدود موسكو كانت الشمس قد اشرقت فى الافق البعيد فأشار اليها نابليون بأصبعه قائلا لمن حوله « انظروا يارفاقى ! هانجمى الحارس ! هيا بنا الى كالوجا • والويل لمن يقف فى طريقى ! » •

ثم تقدم الى مورتييه ـ حاكم موسكو ـ واحتضنه وقال له بصراحة وحزن « ان مهمتك شاقه وخطيرة ولكن علينا واجبات وتضحيات سوف نتقاسمها جميعا » •

وقد احتمى مرتييه وراء أسوار الكرملين • ووضع فى اقبيته وسراديبه مائة وثلاثة وثمانين ألف رطل من البارود ووزع براميل كثيرة منه فى غرف القصر وممراته حتى اذا ما استوثق من آن آخر جندى فرنسى قد رحل عن المدينة اشعل النار فى البارود فأخذ يشتعل ببطء بينما أخذ هو وجنوده يسحبون بسرعة ولما رأى القوازق ان القصر خاليا هجموا عليه طامعين فى الاستيلاء على ما به من نفائس • ولكن ما لبث ان دوى فى الجو صوت انفجار هائل أتى على القصر وما به وقضى على عدد كبير من جنود العدو • وكان الانفجار شديدا فاستيقظ نابليون من نومه مع انه كان على مسيرة ثلاثين ميلا من موسكو • فتنهد تنهد الارتياح اذ علم ان جنود المؤخرة قد غادروا المدينة •

وبدأ الروس يناوشون الجيش المنسحب فى مساء ٢٣ أكتوبر وكان الجنود مستغرقين فى نوم عميق وقد انهكهم عناء السير طول النهار • ففى الساعة الرابعة صباحا هجم عليهم خمسون ألف جندى روسى وكانت صرخات الحرب المزعجة تنطلق من حناجرهم فى سكون الليل • فأسرع الامير أوجين الى جنود فرقته وايقظهم من سباتهم ليقاتلوا العدو المغير وبعد معركة شديدة خسر فيها الفريقان اضطر الروسيون الى الانسحاب نحو الغابات المجاورة ولما سمع نابليون بما فعله أوجين دعاه اليه وضمه الى صدره فى حنان أبوى وقال « هذا أمجد ما قمت به فى حياتك » •

واستمرت كرات العدو فى فترات متقطعة على الجيش التعس ورغم ذلك صمم نابليون على متابعة السير ليصل الى سمولنسك ومنسك مهما يكلفه ذلك حيث كان قد ترك حامية قوية وأعد ثكنات للجنود بها جميع وسائل الراحة • وكان الروسيون يبدون منتهى القسوه فى هجومهم على جيش نابليون وكانوا يغيرون عليه فى الليل والنهار بلا هوادة غير مبالين بحاجة جنوده الى ساعات قليلة من الراحة فى الليل أو النهار • ومضى الجيش المنهك فى رحلته المحفوفة بالاخطار فوصل الى بورودينو فى يوم ٢٨ أكتوبر وفيازما فى يوم ٣١ منه • وهناك عهد الى المارشال (ناى) فى مهمة حماية مؤخرة الجيش • وعندما استأنف الجنود سيرهم هبت عاصفة ثلجية على الجنود

ودفن الكثيرون منهم احياء تحت الثلج . وياليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل احاطت بالجيش وهو فى محنته جماعات من جنود العدو وأخذوا يصلونه نارا حامية . وكان القوزاق يمثلون بجثث الموتى اشنع تمثيل ، وكانوا اذا رأوا جنديا يعالج سكرات الموت ينزعون ملابسه ويتركونه عاريا وسط الثلوج وينصرفون عنه وهم يضحكون فى قسوة وغلظة . أما اذا أخذتهم الشفقة عليه فانهم كانوا يشطرونه بسيوفهم أو ينخسونه بالسنج حتى يدركه الموت .

وهكذا استمرت الحال طيلة الطريق الى سمولنسك . ويأتى الليل الطويل ببرده وثلجه وعواصفه فتهلك معه الألوف من الجنود والخيل . وكان الجنود ينزعون جلود الجياد النافقة ويلتحفون بها . وكانوا يضطرون أحيانا الى قتل الجياد حتى يرتوى الجنود بدمائها الساخنة لعلها تساعدهم على مقاومة البرد . وكان المارشال (ناى) طول الرحلة يتولى حماية المؤخرة على أوفى وجه . وكان جنوده يسقطون الواحد تلو الآخر حتى يفنوا عن آخرهم فيستبدل غيرهم بهم . وأبدى المارشال من ضروب الشجاعة والبطولة ما جعل نابليون يطلق عليه لقب « اشجع الشجعان » .

وقبيل الوصول الى سمولنسك جاء رسول يحمل بعض الرسائل الى الامبراطور فأخذ يفضها باهتمام وتلهف

فاذا به يعلم بتدبير مؤامرة فى باريس لقلب الحكومة الامبراطورية . فقد زور أحد الضباط واسمه (ماليه) مستندا يثبت موت نابليون فى أثناء الحملة الروسية فساد الذعر فى البلاد وانتهز ماليه الفرصة وجمع حوله بضع مئات من الحرس الاهلى وحاول ان يقبض على زمام الحكم ولكن المؤامرة سرعان ما احبطت وقبض على الضابط واعدم رميا بالرصاص .

فصمم الامبراطور على أثر قراءة هذا التقرير أن يسافر وحده في أقرب فرصة يطمئن فيها على مصير جيشه ولما دخل غرفته استدعى الجنرال راب وقال له « ان المصائب لا تأتى فرادى ! كأن الله يريد ان يزيد فى متاعبى واشجانى ! ان وجودى فى باريس ضرورى ويجب ان أعود اليها فى القريب العاجل » .

ومكث نابليون فى سمولنسك خمسة أيام استجمع فيها قوات جيشه وشراذمه المبعثرة وما آن استأنف رحلته حتى بدأت معها متاعب أخرى مردها الى اغارات العدو المتوالية . وكان أهمها الهجوم الكبير الذى قام به القائد الروسى كوتوسوف بجيش من تسعين ألف رجل وافى العدة ووافر الغذاء والملبس . وكانت المعركة شديدة خسر فيها نابليون الآلاف المؤلفة من جنوده واضطر لامتشاق الحسام بنفسه قائلا « اننى أنزل من مقامى كامبراطور لاعود الى منصب الجنرال الذى طالما تقت اليه » .

وقاد جنوده واخترق صفوف العدو وأوقع الاضطراب فيها مما اضطرهم الى الانسحاب رغم تفوقهم عددا وعدة بعد ان تكبد الفريقان خسائر فادحه ٠

وواصل الجيش سيره وقد أخـــذت منه الضربات المتوالية كل مأخذ ولعل كارثة عبور نهر (البيريسينا) كانت أشد كارثة لحقت بالجيش الفرنسى ٠ وكان الروس قد دمروا الجسر الوحيد القـــائم على النهر ٠ فكان على الفرنسيين ان يقيموا جسرا آخر ٠ وفعلا نجحوا فى تحويل أنظار العدو المتربص بهم ريثما أتموا بنـاء الجسر وكانوا يشتغلون فى أثناء الليل ويختبئون فى الغابات فى أثناء النهار ٠ وكان الامبراطور يشرف بنفسه على العمل ٠

ولما حان وقت عبور النهر تقدم نابليون الجموع وعبر النهر الى الضفة الأخرى وقد صاح عند وصـــوله قائلا « ان نجمى لا يزال عاليا ! » ولكنه ما كاد يتم كلمته حتى قصفت مدافع الروس وصوبت قنابلها الفتاكة نحو الجسر فغرق وقتل ألوفـا من جنوده ٠ ولكن نابليون جمع قواتـه البالغ عددها بضع عشرات من الألوف ورد هجوم العـدو بينما أخذ المهندسون فى اصلاح الجسر منتهزين فرصـة انصراف العدو عنهم ٠ واضطر العدو أخيرا الى التقهقر مؤجلا انتقامه الى فرصة أخرى ٠

ووصل الجيش المنكوب الى الاراضى البولندية واطمأن نابليون نوعا ما فدعا قواده الى العشـاء معه وبعد ان فرغوا

منه أبدى لهم رغبته فى الرحيل الى فرنسا تاركا لهم مهمة اتمام الرحلة مؤكدا لهم انه سيعود اليهم قريبا على رأس ثلاثمائة الف جندى مجهزين مدربين ليستأنف زحفه على روسيا · ثم ضمهم الى صدره الواحد بعد الآخر · وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء · فاعدت له زحافتان انتظرتاه عند الباب فتجمع حوله ضباطه مودعين اياه فى تأثر ، وركب احداها نابليون وجلس بجانبه كولينكور (وهو شقيق القائد الذى قتل قبلا) وركب الأخرى دوروك ولوبان وكان حرسهم مؤلفا من بعض أفراد الحرس الامبراطورى ·

وبعد رحلة قصيرة تعرض نابليون فى اثنائها للاسر بضع مرات وصل الجميع بسلام الى (فيلنا) ودخلوا وارسو فى ١٠ ديسمبر · وبعد راحة قصيرة استأنفوا رحلتهم فوصلوا درسدن فى الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ١٤ ديسمبر وفى منتصف ليل ١٨ ديسمبر كانوا على أبواب باريس ·

وكانت الامبراطورة فى ذلك الوقت قد أوت الى مضجعها فى قصر (التويلرى) ولم يكد يخطر لها ان زوجها الامبراطور بباب القصر · وفجأه سمعت أصوات عالية صادرة من الحرس الواقفين فى الردهة الخارجية وبدرت من احدى الوصيفات صرخة خافتة فاستوثقت الامبراطورة من أن شيئا غير عادى قد حصل فقفزت من سريرها وفى هذه

المحطة فتح الباب ودخل رجل قصير القامة وقد غطى جسمه من أعلى رأسه الى اخمص قدميه بالفرو الثقيل وهجم عليها واحتضنها ولما دققت النظر عرفت فيه زوجها الامبراطور .

وألقى نابليون هم الحملة الروسية وراءه على المارشال (ناى) واعوانه . وابدى المارشال شجاعة وتجلدا سوف يتحدث عنهما التاريخ مدى اجيال مقبلة . وعند عبور نهر (النيمن) الذى تنتهى عنده الاراضى الروسية كان هو آخر من عبر النهر . واطلق آخر رصاصة لديه على الجنود الروسيين المتربصين على الضفة الأخرى ثم القى مسدسه فى النهر وواصل سيره ، حتى بلغ منزل طبيب القرية المجاورة فوجد هناك صديقه الجنرال (دوماس) جالسا مع الطبيب وهما يتحدثان . وكان المرشال يمثل الحملة بمتاعبها وبؤسها والاهوال التى لاقتها فكان ضامر الجسم شاحب الوجه طويل الذقن وقد أسود جلده من دخان البارود . وما ان دخل الغرفة حتى ارتمى على مقعد قريب وقال « اننى هنا أخيرا » . ماذا دهاك يا دوماس ولماذا تنظر الى هكذا الا تعرفنى ؟ « فكان الجواب » لا ! من انت ؟ » .

فقال (ناى) « اننى مؤخرة الجيش الامبراطورى . انا المارشال ناى . لقد اطلقت آخر رصاصة عندى بعد عبور جسر كوفنو والقيت فيه آخر ما تبقى عندى من السلاح ثم اخترقت الغابة المجاورة ووصلت اتفاقا الى حيث وجدتك يا صديقى العزيز » .

« في الاسر »

(وكأنما نحسه قد بدا فتوالت النكبات والهزائم ورضى أن يذهب الى جزيرة البا ليقضى بقية حياته . ولكن طموحه الى الغزو والسيادة دفعه الى محاولة الهروب من الجزيرة والعودة الى أرض الوطن ليجرب حظه مرة أخيرة ، فكانت موقعة واترلو ، التى عاد منها محطما مهزوما . ويبين لنا هذا الباب كيف وقع فى آسر أعدائه بعد الهزيمة المنكرة) .

« دعونى وحدى ! »

فاه نابليون بهاتين الكلمتين اذ عاد الى قصر الاليزيه عقب انسحابه من ساحة واترلو التى أفل فيها نجمه الى الأبد ، وكان وصوله بعد منتصف الليل بقليل . وكان فى انتظاره عند باب القصر بعض خدمه المخلصين ، وصديقه الحميم كولينكورت . وكان الاعياء باديا بوضوح على وجهه الذى اضناه التعب والسهر والسفر الطويل ، وبينما هو يصعد درجات السلم ، خانته ساقاه ، وكاد يسقط لولا ان

أمسك صديقه بذراعه · وكان هذا الرجل الذى دوخ العالم مطأطىء الرأس ، غائر العينين ، مهـــدل الثياب ، يتمتم بعبارات الاسى والحزن على ما صار اليه أمره وأمر جنوده وقواده البواسل ، حتى اذا ما وصل الى أول مقعد صادفه ارتمى عليه ، وتنهد بحرقة ، وقال فى تصرع لمن حوله :

« دعونى وحدى » :

وبعد ان استراح قليلا قام الى الحمـــام ، وأزال عن جسمه اثار المعركة ، ثم ارتمى على فراشه محاولا النوم دون جدوى · وأخيرا استدعى صديقه كولينكورت وأخذ يتحدث معه فى هدوء ممزوج بالحزن قائلا :

« ان الضربة التى اصابتنى فى واترلو قاتلة بلا ريب، ولا أمل لى فى النهوض بعدها · لقد كان مشروعى يرمى الى منع اتصال الجيشين المعـــادين وكدت انجح لولا ان خاننى الوغد بورمونت وانضم الى الاعداء فى آخر لحظة ، يا للخائن الوغد ! ان دم فرنسا كلها يقع على رأسه ، وسوف تحل عليه اللعنـــة الى الابد ! أما جروشى فقد تأخر فى الوصول الى نجدتى . ولا أدرى اذا كان ذلك بدافع الخيانة أيضا » ·

وبعد ان سكت قليلا استطرد قائلا :

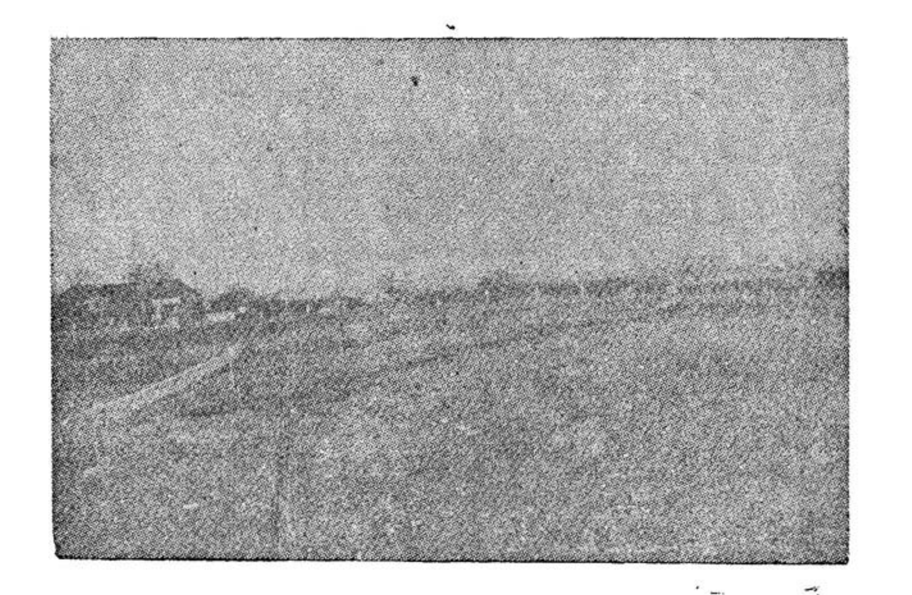
« سوف ادعو المجلسين الى اجتماع اصف لاعضائهما فيه بكل امانة ودقة تفاصيل النكبة وأسبابها ، وأناشدهم القيام بمحاولة أخرى لانقاذ الوطن فاذا استجابوا لدعوتى حملت على الاعداء حملة ارجو الله ان يوفقنى فيها » ·

وساد الفزع والهلع فى باريس . وأخذت الاخبار ترد بتقدم قوات بلوخر وولنجتون نحو العاصمة الفرنسية ، وانتهز اعداء نابليون السياسيون فى داخل البلاد فرصة انحطاط القوى النفسية عند الشعب فاخذوا يذيعون ان نابليون هو اس البلاء ، وان الحرب القائمة هي حرب اعلنها الحلفاء ضد نابليون وليست ضد فرنسا ، فاذا نبذت فرنسا نابليون واقصته ، نجت من اهوال حرب طاحنة تسيل فيها الدماء بغير حساب . وأخذ هؤلاء الدساسون يناشدون بنى وطنهم ان يخلعوه ويختاروا امبراطورا جديدا ، أو يؤسسوا جمهورية تنقذهم من الوهدة التى ارداهم فيها نابليون .

واجتمع المجلسان ، فكانت أغلبية الآراء فى غير مصلحة نابليون ، الذى استنتج من تفاصيل المناقشات التى وصلت اليه ان تنازله عن العرش أصبح محتما .

وعندما وصله قرار المجلسين النهائى بمطالبته بالتنازل عن العرش قال لمن حوله فى حزن .

« لقد ضاع كل شىء ، سوف يملى الحلفاء علينا شروطهم وتقع البلاد تحت رحمتهم . وكل ذلك بسبب هذه الغلطة الشائنة التى ارتكبها النواب والشيوخ بقرارهم عزلى . ماذا يظن هؤلاء السذج البلهاء ! ان فى امكانى حل المجلسين والتخلص من مضايقة أعضائهما ولكن لا ! لن أضحى بعد الآن بفرنسى واحد في سبيل تحقيق مطامعى» .



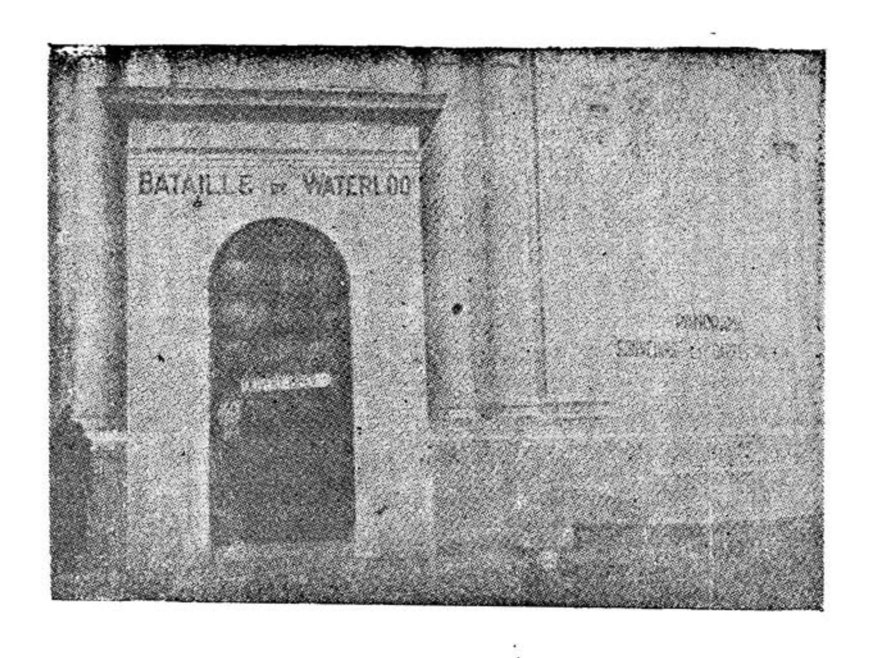
مكان المعركة مراع شاسعة تمرح فيها العجول والخراف



منزل بقرية (واترلو) كان موجودا منذ أيام المعركة ويرى المؤلف واقفا أمامه



منظر آخر بقرية (واترلو) . كانت هذه المنازل موجودة ايام المعركة



المبنى الكبير الذى تقع فيه (البانوراما) التى تبين تفاصيل المعركة

وهكذا انقضى يوم ٢١ يونيو فى مناقشـــات حادة بمجلسى البرلمـــان ومجلس الوزراء • وأوى نابليون الى فراشه فى آخر الليل سقيما مضعضع القوى • وســهرت باريس معه طــول الليــل فلم تنم حتى الصباح بل قامت فيها المظاهرات الحماسية وطالب الشعب بالسلاح يحمى امبراطوره المحبوب ، ولكن ماذا تجدى حماسة الشعب وقد قرر ممثلوه عزل الامبراطور ؟

وبزغ فجر ٢٢ يونيو وبونابرت لم يزل فى مخدعه ، وبينا هو كذلك دخل الغرفة صبى يحمل طعام الافطار . ولم يتنبه نابليون الى وجوده فى أول الأمر ولولا ان الصبى تجرأ وقال مخاطبا مولاه :

« هلا تفضل مولاى يتناول بعض ما احضرته له ، فان الغذاء منبه للذهن ومجدد للقوى » .

فنظر اليه نابليون بعطف وحزن عميقين وقال له :

« ما اسعدك أيهـــا الصغير ، اننى أعلم انك ريفى ساذج ، لقد أخبرتنى قبــلا ان والدك يمتلك كوخا صغيرا وبعض الأفدنة فى بيرفيت أليس كذلك ؟ » .

فأجاب الصغير فى احترام : « نعم يا مولاى » .

فتنهد الامبراطور وقال : هناك السعادة الحقة ! »



وأخذت الحوادث تتتابع بسرعة خلال النهار ، وتسلم الامبراطور صيغة قرار أعضاء المجلسين الذى يناشدونه فيه ان يتنازل عن العرش خدمة لفرنسا التى أحبها وأحبته . وقابل نابليون المندوب الذى سلمه القرار بكل رقه ولطف ووعده بجواب سريع عاجل . ثم أخذ يذرع الغرفة ممليا على سكرتيره نداء للأمـــة الفرنسية يعلن فيه تنازله عن العرش . ومما جاء فيه : « ان حياتى السياسية قد انتهت الى الابـد . وأنادى بابنى نابليون الثانى امبراطورا عـلى فرنسا ، وآمل ان يوفق المجلسان بسرعة في تعيين الاوصياء على العرش ، حتى تتحد الأمـة تحت لواء ملكهـا الجديد ، وتحافظ على كيانها واستقلالها . وارجو من كل قلبى ان يثبت الحلفاء ما رددوه كثيرا من ان كرههم ونقمتهم منصبان على شخصى ، وانهم لا يضمرون لفرنسا الا كل خير .

★ ★ ★

وفى المساء أوى الامبراطور الى مخدعه ، وكان مضاء ببعض الشموع ، وكان الضوء ضئيلا مما بعث الهـــدوء والطمأنينة فى قلب نابليون . وبزغ فجر ٢٣ يوليو فبدأت معه فترة من احرج الفترات فى تاريخ فرنسا ؟ فقد كانت جيوش الحلفاء تتقدم بسرعة نحـو العاصـمة بينما كانت البلاد بلا حاكم ولا حكومة . وقضى الامبراطور يومه بقصر الاليزيه كأى مواطن عادى ، مجردا من السلطان . وأخـذ يجاذب من حوله أطراف الحديث . ولما ســأله أحـد أفراد

حاشيته عما ينوى عمله ، أجاب بدون مبالاة : « لم أقرر بعد ما أنوى عمله ، وانى اتساءل : ما الذى يمنعنى من البقاء هنا ؟ لماذا لا أعيش فى معزل عن الناس يحيط بى بعض الاصدقاء الذين اخلصوا لعرشى لا لسطوتى ؟ واذا رفضوا السماح لى بالبقاء فى أرض الوطن فالى أين أذهب ؟ لا أظن ان وجودى فى انجلترا أمر مرغوب فيه • اذا فلتكن أمريكا مقصدى ، حيث يمكننى ان أعيش فى هدوء محتفظا بكرامتى •• »

وازدادت رغبة الامبراطور فى الاسراع بالرحيل ، فأرسل الى الحكومة يطلب منها ان تعد له بارجتين حربيتين ليرحل بهما عن البلاد ، وطلب من فوشيه ان يتوسط لدى الحلفاء ليمنحوه أمان المرور الى الشاطىء حيث يغادر البلاد • ولكن الدوق ولنجتون رفض هذا الطلب ، وأمر بتشديد الرقابة على الشاطىء حتى يحول دون هربه •

وفى ليل ٢٧ يونيو أوعز فوشيه وأعوانه الى بونابرت ان الباخرتين اللتين طلبهما موجودتان فى ميناء روشفور فى انتظار أوامره ، وأن عليه ان يذهب الى هذا الميناء لينتظر الفرصة السانحة للابحار بسلام • ولم يكن ذلك امعانا فى الاخلاص من فوشيه ، ولكن خوفا من ان يضع الامبراطور نفسه مرة أخرى فى ساعة يأس على رأس الأمة الفرنسية فتبدأ المتاعب من جديد •

وفى هذه الاثناء استولى الحلفاء على كامبين ، وهى

على مسيرة يومين من باريس • فحاول نابليون ان يلهب الشعور فى قلب القائمين بالحكم اذ ذاك ، مظهرا استعداده لقيـــادة الجيش من جديد ، وكاد ينجح فى مسعاه لولا ان عارض فوشيه قائلا : ان وجود نابليون على رأس الجيش يوغر صدور الحلفاء من جديد ، ويجعلهم يتشـــددون فى حملتهم وفى شروط الهدنة والصـــــلح • وكان بلوخر وولنجتون أثناء ذلك واثقين من النصر النهائى • فأخذت جيوشهما تتوغل فى الاراضى الفرنسية دون انتظام ، بحيث كان من السهل على نابليون أن يردهم على أعقابهم اذا جمع جيشا قويا ، والهبت صدور جنوده رغبة ملحة فى محو عار موقعة واترلو • وفعلا ارتدى ثياب المعركة واعد له جواده على باب القصر ، وجمع أركان حربه ، ولم يبق الا موافقة القائمين بالأمر ليمتشق الحسام من جديد • وبينما هو كذلك اذا برسول يحمل اليه جواب الحكومة برفض اقتراحه هذا ، فعلق على هذا القرار بقوله : « حسنا • سوف يندمون على ما فعلوا ••• » ثم أمر بأعداد معـــدات الرحيـــل الى الشاطىء •

وكان ينتظره عند باب القصر بعض أصدقائه الاوفياء الذين صمموا على مشاركته فى محنته حتى النهاية ، مثل الكونت برتران وزوجته وأولاده والكونت مونتولون وزوجته وولده ، ولاس كاساس وولده • وركب الجميـــع العربات المجهزة بالجياد الملهمة قاصدين ميناء روشفور الذى يبعد عن باريس حوالى الثلاثمائة ميل • وكان أصـــدقاؤه قد

حسبوا حساب أى محاولة لاغتياله فجهزوا أنفسهم بالسلاح والذخيرة • وفى الساعات الأولى من الرحلة لم ينبس أحد منهم ببنت شفه احتراما لصمته وحزنه •



وصل الركب فى الساعة العاشرة مساء الى رامبوبيه حيث قضى الجميع ليلتهم ثم استؤنفت الرحلة فى صباح ٣٠ يونيو ، وبعد ثلاث ساعات وصلوا الى شاتودان ـ حيث استقبلتهم صاحبة الفندق سائلة فى لهفة ـ دون ان تعلم شخصية ضيوفها ـ عن مقدار الصحة فى الاشاعة التى ذاعت أخيرا عن اغتيال الامبراطور • ولكنها لم تكد تلمحه حتى عرفته فى الحال ، فرفعت عينيها الى السماء ضامة يديها الى صدرها ، ثم انفجرت باكية كأنها تشكر العناية الالهية على حمايتها لمن عبدته وقدسته • وتأثر نابليون حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، وربت على كتفيها شاكرا لها مهدئا روعها •

أخيرا وصل الركب الى ميناء روشفور حيث كانت الباخرتان الحربيتان اللتان أوصى بهما الامبراطور راسيتين فى الميناء • وكان نوشيه قد أوعز الى الاسطول الانجليزى ان يشدد الحصار على الشاطىء الفرنسى حتى يحول دون فرار نابليون •

وفى الساعة الرابعة من مساء يوم ٨ يوليو ركب

قاربا صغيرا حمله الى البارجة الفرنسية (سال) حيث قضى يومى ٩ و ١٠ يوليو ينتظر عبثا صدور الأمر الى البوارج الانجليزية للسماح له بالمرور · ولما طال انتظاره أوفـــد شخصين من حاشيته هما الدوق روفيجر ولاس كاساس الى قائد الاسطول الانجليزى ليستفهما منه عن ســبب تأخر التصريح للامبراطور بالسفر الى الولايات المتحدة الأمريكية · فأخبرهما الكابتن ميتلند ، قائد البارجة بلليروفون ان لديه أوامر صريحة بأسر أى باخرة تحاول اختراق نطاق الاسطول المحاصر ، وانه سيتصل على كل حال بالقائد العام للاسطول ليرى اذا كانت لديه أى تعليمات أخرى ·

وعندما بلغ نابليون هذا الجواب فكر قليــلا ثم أعلن عزمه على بدء رحلته فى الحال ورغم كل عائق ، وأمر الدوق روفيجر ان يصدر أمرا باسم الامبراطور الى قائد السفينة ليبحر فى الحال · وبما كان أشد دهشته عندما أجابه الكابتن فيليبرت أن لديه أوامر من الحكومة الفرنسية ان لا يحاول الابحار اذا وجــد فى ذلك أى تعريض السفينة للخطر · وعندها صاح الدوق غاضبا : « ان فى الأمر خدعة · ان الحكومة تتآمر على تسليم الامبراطور للاعداء » ·

ولما سمع نابليون بذلك قال : « طالما حدثتنى نفسى بالتشكك فى حقيقة هذا الكابتن الذى كانت ظواهره تدل على عكس ما يبطن · ولكن هناك دائما الوغد فوشيه وراء الستار » ·

وفى أثناء هذه المحنة القاسية تقــدم قائد الباخرة الدانيماركية (بايادير) وكانت راسية فى الميناء ـ الى نابليون عارضا حمايته ، مؤكدا له ان فى امكانه الهرب به من نطاق الحصار ، وأخبره انه قد أعد له مخبأ سريا فى سفينته ، لن يتوصل العدو الى اكتشافه · ولكن الامبراطور رفض هذا العرض فى أدب وظرف وفضل البقاء أسيرا على ان يترك رفقاءة تحت رحمــة أعدائه نى داخــل البلاد وخارجها ·

وكان شقيقه جوزيف بونابرت يشبهه شبها كبيرا ، فعرض عليه ان يحل محله ويتسلل نابليون بدله الى بوردو حيث أعدت كل المعداد للرحيل الى الولايات المتحدة · ولكن الامبراطور رفض بشدة ان يضحى بأخيه ، وشكره على جميل عواطفه ·

واقترح البعض عليه ان يعود الى فرنسا ويبدأ الحرب من جديد ، فرفض ذلك مفضلا الموت والأسر على الزج بأمته فى اتون حرب أهلية · وآثر الانتظار ريثما يصــل اليه جواب القائد الانجليزى ·

★ ★ ★

أرسل الامبراطور مندوبيه مرة ثانية الى الكابتن ميتلند يوم ١٤ يوليو ، ـ فابلغهما أن الأوامر صدرت اليه بأن يستقبل الامبراطور على ظهر البارجة بلليروفون اذا رغب السفر الى أنجلترا · وأنه لذلك يضع سفينته تحت تصرفه · ولما أبلغ نابليون هذا القرار أخذ يتشــاور مع

اصدقائه فيما يجب عمله ، فانحازت أغلبية الآراء الى الرأى القائل بأن يضع الامبراطور ثقته فى الشرف البريطانى ويسلم نفسه للانجليز • ولم يشذ عن هذا القرار الا اثنان هما الكونت مونتولون والجنرال جورجود ، فانهما حذراه من الوثوق بوعود الحكومة الانجليزية مهما كان واثقا من عطف وكرم ضيافة الشعب الانجليزى •

واخيرا تناول الامبراطور قلما وقرطاسا وكتب الى جورج الرابع ملك انجلترا الخطاب التالى •

« رغبـــة منى فى تجنب سفك الدماء ، وازاء تألب جميع القوى لهدمى ، وجدت أن أقوم سبيل هو انهاء حياتى السياسية واللجـوء الى انجلترا لاتمتع بدفء نار الموقد الانجليزى العتيد ، ولأضـــع نفسى تحت حماية القانون الانجليزى العادل » •

وكانت الساعة انذاك الرابعة بعد الظهر ، فاوفـــد لاسكاساس وجورجود الى البارجة بلليروفون ليعلنا قائدها ان الامبراطور سوف يصل الى ظهرها فى اليوم التالى •

وعهد الى جورجود أيضا بايصال الخطاب المرسل الى جورج الرابع ، وطلب منه ان يحاول تسليمه بنفسه الى يدى الملك • ثم قال له :

« اذ سئلت عن البلاد التى افضل النزوح اليها ، فليكن الاختيــار الأول الولايات المتحدة الأمريكية • واذا

رفضوا ذلك فانى أفضل البقاء في انجلترا نفسها ، حيث يمكنني قضاء بقية حياتي في ريفها الجميل على بعد عشرة او اثنى عشر ميلا من لندن متنكرا تحت اسم الكولونيل موبرون أودوروك ، وسأختار لسكناى بيتا كبيرا يكون فيه متسع لجميع أفراد حاشيتي وزوجاتهم وأولادهم .

وسمح للجنرال جورجود بالسفر الى انجلترا ولكن لم يسمح له بالنزول الى البر وأرسل الخطاب الذى يحمله الى بلاط سان جيمس على يد رسول خاص .

وفى أثناء ذلك دخل الجنرال الفرنسى بيكر الى غرفة الامبراطور فى البارجة وأخبره انه وصل الى علمه أن البوربون أرسلوا بعض الضباط للقبض عليه ، فلما سمع بذلك ارتدى ملابسه بسرعة واستعد للرحيل عند بزوغ الفجر ، اذ ركب قاربا صغيرا حمله الى البارجة الانجليزية بلليروفون تصحبه حاشية من ضباط وسيدات وأطفال وخدم بلغ مجموعهم ٥٩ شخصا .

ولما وصل نابليون الى السفينة استقبله الكابتن ميتلند قائدها وبقية الضباط استقبالا يليق بمقامه .. وحالما وضع قدمه على ظهر السفينة خاطب قائدها قائلا :

« اننى أتيت الى سفينتك لاضع نفسى تحت حماية القانون الانجليزى » .

فانحنى القائد باحترام وتأثر · وصحب الامبراطور الى غرفة أعدت له ، ثم قدم له جميع ضباط الباخرة ·

وأقلعت السفينة قاصـــدة انجلترا · وبينما هى سابحة فى طريقها أوقفتها سفينة انجليزية أخرى تحمل اسم (سوبرب) وطلب قائدها ان يسمح له بالمثول بين يدى الامبراطور ليبـدى له احتراماته وليرجو منه قبول دعوته لتناول الأفطار على ظهر سفينته · وقد قبل نابليون الدعوة واستقبل هناك استقبالا رسـميا حافلا ، ولما عرض عليه قائدها ان يمضى بقية الرحلة فى بارجته لتوفر وســائل الراحة عنده أكثر من البارجة (بليروفون) رفض فى أدب وظرف قائلا :

« اننى أخاف ان فعلت ذلك أن اوذى شعور الكابتن ميتلند الذى لم ألاق منه حتى الآن الا كل رقة وأدب فى المعاملة · ولا أجد سبيلا لرد جميله الا البقــاء ببارجته حتى نهاية الرحلة ، عسى أن يؤدى ذلك الى ترقيته لرتبة أعلى » ·

★ ★ ★

واستغرقت الرحلة الى الشــاطىء البريطانى حــوالى تسعة أيام ، لان الرياح كانت شديدة والأمواج متلاطمة ، وقد سر الامبراطور كثيرا من الرحلة ، وكان يقضى معظم الوقت بين ضــباط البارجة وبحارتهـــا ، مظهرا اعجابه بنظامهم وهندامهم · وقد قال ذات مرة :

« ان النظام والهدوء اللذين يسودان البحارة يدعو الى الاعجاب العظيم ! انك لا تســـــمع على ظهر الباخرة الفرنسية الا كل ضوضاء وشوشرة دونها أصوات الاوز ـ ونقيق الضفادع ! » ٠

وقد أزالت المعاملة الحسنة التى لقيها على ظهر السفينة شكوك الامبراطور فى نيات انكلترا نحـوه ٠ وكان كلما اقترب من الشاطىء الانجليزى ازدادت طمأنينته وتضاعف حب الضباط والبحـــارة له ٠ وكانوا ينادونه بمولاى أو صاحب الجـلالة ٠ وكلما سار على ظهر الســـفينة خلعوا قبعاتهم بكل احترام واجلال ٠

وفى الساعة التاســـعة من صباح ٢٥ يوليو ألقت الباخرة مرساها فى ميناء (توربای) ٠ وما كاد يذاع خبر وصولها حتى احتشدت فى المينــــاء مئات القوارب حاملة رجالا ونساء من جميع الطبقات ، وقد أتوا ليفوزوا بنظرة الى الرجل الذى ملأ العالم اعجابا ٠ وقد خرج الامبراطور الى ظهر الباخرة مرارا ، وكانت النساء تلوحن بمناديلهن فى كل مرة ظهر فيها ٠

وفى مســـاء ٢٥ يوليو استؤنفت الرحلة ، ورست السفينة بميناء بليموث فى ظهر اليوم التالى ٠ وفى المساء ادرك الامبراطور أن فى الجو شــيئا غير عادى ٠ اذ لاحظ تغيرا ظاهرا فى نفسية الكابتن ميتلند ، الذى بدا حزينا مفكرا على غـير عادته ٠ واحيطت الســـفينة بسياج من

القوارب لمنع أى شخص من الاقتراب من السفينة أو النزول منها بدون اذن خاص من أميرال الاسطول . وكان الميناء محتشدا بمئات القوارب . والشاطىء مكتظا بالآلاف الذين أتوا من مسافات بعيدة ليلقوا نظرة على الاسير العظيم وكانوا يحيونه بالهتافات وتلويح المناديل ، كلما شاهدوه على ظهر السفينة .

وفى مساء ٣٠ يوليو صعد الى ظهر السفينة السير هنرى بانيورى والاميرال كيث وقرأ أحدهما على الامبراطور القرار الآتى : —

« ان واجب الحكومة الانجليزية ازاء نفسها وحلفائها ان تقوم بمنع الجنرال بونابرت من القيام فى المستقبل بأى عمل يؤثر على السلم العالمى . ولذلك تقرر أرســاله الى جزيرة سانت هيلانه حيث يمضى بقية حياته . وقد يحب الجنرال ان يعلم أن جو الجزيرة صحى ، وموقعهــا البعيد سيساعده على التمتع بحرية التجول فى أنحائها دون أن يكون هناك خطر على حياته » .

وترك له الاختيــار لاصطحاب طبيب وثلاثة ضباط واثنى عشر خادما يعاملون كأسرى حرب طول مدة اقامتهم معــه ، وقد كلف الســير جورج كوكبورن باصــطحاب الامبراطور ونبه عليه أن ينادى نابليون بلقب (جنرال) وليس كصاحب جلالة أو امبراطور .

أصغى نابليون الى هذا القرار بهدوء ووقار دون أن تظهر عليه علامات التأثر . حتى اذا ما انتهى من سماعه قال بكبرياء : « انني ضيف انجلترا ولست أسيرها . لقد اتيت من تلقاء نفسي لاحتمي بالقانون الانجليزي العــادل الذي داست عليه حكومتكم بفعلتها هـــذه . انني احتج بشدة ، وأناشد مرة ثانية الشرف الانجليزي » .

ولما انصرف المندوبان التفت نابليون الى من حــوله وقال : « سانت هيلانه ! لا أصدق أن هذه الجزيرة النائية الشديدة الحرارة سوف تصبح مأواى الأخــير . ياليتهم سلموني الى البوربون أو سجنوني في برج لنــدن أو في احدى قلاع انجلترا الحصينة . انهم يريدون التخلص مني بسرعة ، فجسمي لا يتحمل جوا مريعا كجو جزيرة سانت هيلانه ، ثم انهم ينادونني بلقب جنرال . حسنا ! ليكن لقبي كبير أساقفة اذا شـــاءوا ، فانني بحكم مركزي كامبراطور كنت رئيس الجيش والكنيسة معا ! » .

ولم تلبث سحب الكآبة أن تلاشت عن وجه نابليون ، وعاد اليه سروره وحبوره ومرحه ، وأخذ يمزح مع أصدقائه، واقترح ان يقضي الجميع وقتهم في المنفى في كتابة مذكراتهم وتاريخ حياتهم .

* * *

وازداد عطف الشعب الانجليزي على الاسير العظيم ، فتطوعت اثنتان من كبريات الصحف للدفاع عنه . وتجمع

أفراد الشعب كل يوم على الشاطىء وفى القوارب ، وكانوا يهتفون له كلما لمحوه على ظهر السفينة • وهو يجيب عليهم بتلويح قبعته المشهورة • وتشجع نابليون اذ رأى وشعر بهذا العطف الشديد من أفراد الشعب ، فكتب – بناء على اقتراح محاميه الانجليزى – الاحتجاج التالى الى الحكومة الانجليزية :

« اننى احتج بشدة على هذا الاعتداء الصارخ على حريتى وشخصى • لقد أتيت اليكم بمحض ارادتى لاكون ضيفكم لا أسيركم ، لقد كانت ثقتى كبيرة فى عدالة القانون الانجليزى • فحذار من حكم التاريخ الذى سوف يتكلم عن غدركم بعدو حاربكم عشرين عاما ثم سلم مختارا فى ساعة محنة وانكسار • فاذا بكم تغدرون به وتستغلون ضعفه وتجرده من سلاحه » •

الباخرة بليروفون – فى ٤ أغسطس ١٨١٥ •

الامضاء

نابليون

وفى اليوم التالى أعلن نابليون الى قائد السفينة أسماء الذين وقع عليهم اختياره لمرافقته فى الرحلة ، وهم المرشال برتران ، والكونت مونتولون ، والكونت لاس كاساس ، وازاء تصميم الجنرال جورجود على مرافقة مولاه سمحت له الحكومة بالسفر أيضا •

وفى مساء ٧ أغسطس صعد الى ظهر السفينة (بليروفون) كل من الاميرال كيث والاميرال كوكبورن ، وكان يبدو عليهما الارتباك والخجل . وأخيرا تشجع الاميرال كيث وقال للامبراطور فى صوت خافت : ان لديه أوامر من حكومته بتفتيش حقائبه وكذلك حقائب زملائه ، ومصادرة كل أموال يعثرون عليها حتى لا يستخدمها (الجنرال) فى محاولة الهرب من منفاه . وستحتفظ الحكومة بهذه الأموال حتى وفاته . وبعدها تنتقل بكل أمانة الى الأشخاص الذين يختارهم فى وصيته .

وقد قام لأميرال كوكبورن بمهمة تفتيش الحقائب . وقد عثر على حوالى مائة ألف فرنك ذهبا ، فصادرها الا مبلغ اثنى عشر ألف فرنك تركها فى عهدة خادمه الخاص مارشان ليستعين بها نابليون فى نفقاته الخاصة . ولم يجرؤ الاميرال على تفتيش جيوب الامبراطور والملابس التى يلبسها ، وبذلك سلمت من المصادرة مجوهرات وحوالات مالية قيمتها أربعة ملايين فرنك .

وكان نابليون فى أثناء ذلك واقفا فى غرفته ينظر من الشباك مفكرا حزينا ، وبجانبه رفقاؤه خاشعين ساكنين احتراما لحزنه . واذ هم فى هذا الموقف الرهيب دخل عليهم اللورد كيث وقال بصوت يرتعد من شدة الخجل والاضطراب .

« ان انجلترا تطلب سيفك أيها الجنرال بونابرت » .

فأفاق الامبراطور من ذهوله ونظر الى اللورد نظرة فاحصة جعلته يطأطيء رأسه الاشيب خجلا ٠

ولما وضع نابليون يده على مقبض سيفه لتسليمه ، غلبه التأثر على اللورد فانسحب نحو الباب قبل ان ينهى مهمته ، وعندها ذكره سكرتيره الذى يرافقـــه ان أوامر الحكومة صريحة فى وجوب الحصـــول على سيف الجنرال ، فنظر اليه اللورد غاضبا وقال بحدة :

« ليس هذا من شأنك » ٠

ولما دنت ساعة انتقاله الى السفينة الحربية نورتمبرلاند ـ وهى التى اختيرت لتنقله الى منفاه ـ ودع قائد السفينة (بلليروفون) وضباطها وداعا مؤثرا ، شاكرا لهم ما لقيه من حسن المعامله ٠ ثم تقدم نحو سلم الســـفينة ، وقبل ان يغادرها انحنى ثلاثا للبحارة الذين تجمعوا لتوديعه ولما ركب القارب الذى أقله الى السفينة نورثمبرلاند ظل واقفا برهة ، انحنى فى اثنائها مرة للضباط وأخرى للبحارة ثم جلس هادئا وأخذ يتحدث مع اللورد كيث حتى وصل القارب الى الباخرة ولما صعد الى ظهرها استقبل استقبالا رسميا من البحارة ، يليق بمقامه كقائد عظيم ٠ وبعد ان شـــكرهم جميعا بكلمات رقيقه ، استأذن فى الدخول الى مخدعه ٠

وهكذا أقلعت السفينة فى يوم ٩ أغسطس ســـنة ١٨١٥ تحمل أسيرهـا العظيم ومعه حاشـــيته المكونة من

الكونت والكونتس مونتولون وابنهما ، والكونت والكونتس برتران وأطفالهما الثلاثة ، والبارون جورجود ، والكونت لاس كاساس ، والدكتور أوميرا . وكانت تحرسها عشر سفن حربية .

وبينما أخذت السفينة تتحرك وقف الامبراطور على ظهرها ينظر الى الافق البعيد ، علىه يلقى نظرة أخيرة على فرنسا المحبوبة . وفجأة ارتفعت السحب وظهرت سواحل فرنسا عن بعد ، فنظر الامبراطور فى صمت وخشوع الى الارض التى عاش وحارب من أجلها . ثم رفع قبعته وانحنى للارض النائية . وهتف من قلبه قائلا :

« **وداعا يا فرنسا .. وداعا يا أرض الشجعان !** » .

على فراش الموت

(ووصل اخيرا الى الصخرة النائية بعد رحلة طويلة شـــاقة . وقاسى ما قاسى من الهول والمذلة والهــوان حتى رحمه مـلاك المـوت فاختطفه . والآن اقرأ واتخـذ من المأســـاة موعظة) .

قلنا ان السفينة التى تقل نابليون الى منفاه أخذت تتحرك فى تؤده ، بينما وقف الاسير العظيم على ظهرهــا ينظر الى الأفق البعيد ، عله يلقى نظرة أخيره على فرنســا المحبوبة التى عاش وحارب من أجلها وفجأه ارتفعت السحب وظهرت سواحل فرنسا على بعد ، فرفـــع نابليون قبعته وانحنى للأرض النائية وهتف من قلبه قائلا :

« وداعا يا فرنسا . وداعا يا أرض الشجعان » .

شاهد الضباط الانجليز هذا المشهد المؤثر ، وسمعوا صيحة نابليون الصـــادرة من قلب مفعم بالاخلاص وحب

الوطن ، فخلعوا قبعاتهم واحنوا رؤوسهم فى تأثر عظيم مشاطرين أسيرهم الممتاز عاطفته وحزنه ٠

وسرعان ما تمالك نابليون شعوره وسار فى هدوء وثبات الى قمرته بالباخرة ، وبقى فيها حتى الساعة الرابعة بعد الظهر يقرأ تارة ويتحدث تارة أخرى الى من يستدعيه من أفراد حاشيته ، ثم ارتدى ملابس العشاء وخرج الى غرفة التدخين حيث قضى نصف ساعة يلعب الشطرنج ٠ وفى الساعة الخامسة تماما دخل قائد السفينة يدعو الامبراطور لتناول العشاء ٠ وقضى الجميع أكثر من ساعة بين أكل وشراب وسمر وحديث تناول موضوعات عامة ٠

واستمر هذا النظام طوال الرحلة ، ولم يكن من عادة نابليون الجلوس الى مائدة الطعام أكثر من عشر دقائق ، ولكنه اضطر ـ مراعاة لمن معه ـ ان يبقى معهم طول مدة تناول الطعام ، وكانت تتجاوز أحيانا الساعتين وكان خادماه الخاصان يقفان خلفه ليقوما بخدمته ٠ وكان نابليون يأكل القليل من الطعام الذى يقدم اليه ، ولا يرفض أى صنف منه ، كما لم تكن عادته ان يظهر استحسانا أو اشمئزازا من ألوان الطعام التى توضع أمامه ٠٠٠

واعتاد نابليون ان يسير على ظهر السفينة بعد العشاء مدة ساعة أو أكثر فى صحبة اصدقائه ، وفى أثناء هذه الساعات ينسى نابليون حاضره ويتحدث عن ماضيه ساردا على رفاقه فى صراحة وبساطة ، ما صادفه فى

تاريخه الحافل من محن وانتصارات ، ودسائس وانكسارات ٠

وكان على ظهر السفينة مدفع اعتاد نابليون أن يجلس عليه بعد جولته اليومية على ظهر الباخرة فيجتمع حوله كل من أنس اليه من البحاره والضباط ، وقد يبقى معهم ساعات محدثا اياهم فى بساطة وديموقراطية ٠ وسمى هذا المدفع فيما بعد : « مدفع الامبراطور » ٠

وخطر لنابليون أن يتسلى باملاء مذكراته على لاس كاساس صديقه ، فكان اذا حان وقت الاملاء هنيهة ، ثم ينتصب واقفا ، ويذرع الغرفة وهو يذكر الحوادث مفصلة بتواريخها وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح ٠

وحدث فى يوم ٧ أكتوبر ، ان قابل الاسطول الانجليزى سفينة فرنسية فانتقل اليها احد ضباط الباخرة نورثمبرلاند التى تقل الامبراطور واخبر قائدها ان الامبراطور فى طريقه الى سانت هيلانه على ظهر النورثمبرلاند ، فدهش القائد وهز رأسه فى يأس ظاهر وقال :

« لقد انتزعتم منا كنزا لا يقدر بثمن ، ، وحرمتمونا من الحاكم الوحيد الذى كان يفهمنا وكنا نفهمه » ٠

وعند غروب شمس يوم ١٥ اكتوبر صاح أحد البحارة قائلا : « ها هى الارض اخيرا » وكان ذلك ايذانا

بقرب الوصول الى الجزيرة · وفى ظهر اليوم التالى ألقت الباخرة مرساها فى ميناء سانت هيلانه ، وعند ذلك اخذ نابليون ينظر خلال منظاره متأملا هذه الجزيرة القاحلة البشعة من صخور وتلال بلغت اعنة السحاب ولمح مجرى كبيرا من المـاء يمتى خـلال الجزيرة ، ولفت نظره كثرة المدافع التى نصبت على كل صخرة وركن من الجزيرة ·

ولقد استغرقت الرحلة مائة يوم منذ رحيـــل الامبراطور من فرنسا ، وسبعين يوما بعد ابحـــاره من انجلترا · وتبعد الجزيرة عن أوربا ستة آلاف ميل وهى ذاتها صغيرة تبلغ عشرة اميال طولا وستة عرضا ويحيط بها سور عال من الصخر به ثلاثة منافذ هى الطـــرق الوحيدة للوصول الى داخل الجزيرة وقد احكم تحصينها حتى لا يتسنى لاى مخلوق الهروب بغير علم الحــرس المنبثين فى انحاء هذه الصخرة النائية ·

وفى عصر يوم ١٦ أكتوبر تأهب الامبراطور المنزول الى سجنه الابدى وارسل فى طلب القائد ليشكره على ما لقيه اثناء الرحلة من حسن المعاملة وتوفر اسباب الراحـــة وسأله أن يبلغ تحياته الى جميع الضباط والبحارة الذين تجمعوا على ظهر الباخرة ليودعوه الوداع الاخير ، وكانت عيون اغلبهم مغرورقة بالدموع · وكان الموقف أشـــبه بجنازة الميت ، وساد نفس السكون الرهيب الذى يخيم على المشيعين عندما نزل نابليون الى القـارب الذى أقله الى سجنه وقبره ·

وعندما وصل الى الجزيرة كانت الشمس قد غابت وراء الافق ومشى الامبراطور فى شارع حقير بقرية جيمس تاون ، قاده الى غرفة متواضعة رثة اختبرت ليقضى فيها مدة ريثما يتم اعداد منزل له ، وكان بها سرير حديدى بسيط فى مظهره عليه مرتبة ووسادة وفى اركانها بعض قطع الاثاث التي لا تليق بمقام الضيف العظيم ، ووقف عند بابها وعند نوافذها حرس مدجج بالسلاح ٠

رأى نابليون كل ذلك ، فارتمى على كرسى قريب منه واخذ يفكر في هدوء وحزن ثم رفع رأسه فى تثاقل وامر جميع من بالغرفة بالخروج ، ثم اطفأ الانوار وارتمى على فراشه يلتمس الراحة والسلوان في الوحـدة القاتله ، وراح يفكر ويفكر ٠

وهكذا قضى نابليون الليلة الاولى في المنفى ، ولا يعلم الا الله ماذا جال بخاطره خلالها ٠٠ !

وفى الساعة السادسة من صباح اليـوم التالى ، امتطى صهوة جواد فى صحبة بعض رفقائه وسار الجميع نحو قرية (لونجوود) التى تبعد بمسافة ثلاثة اميال عن جيمس تاون ، وكان الغرض من الرحلة معاينـة المنزل الذى اختارته الحكومة الانجليزية ليكون مقام الامبراطور الدائم بالجزيرة ٠ ولشد ما دهش نابليون عندما رأى بقعة جرداء قاحلة يتخللها مجرى ماء صغير ويقـوم فى وسطها كوخ حقير كان فيما مضى يستعمل كزريبة للبقر

ثم اجريت فيه بعض الاصلاحات التى جعلته صـــــالحا للسكنى ، وكانت ميزته الوحيدة انه يقع فى مكان مـن الجزيرة اقل حرارة والطف جوا ٠

عاد نابليون من رحلته محطم النفس كسير الفؤاد ؛ واذ هو فى الطريق شاهد منزلا ريفيا صغيرا فى بقعـــة اسمها « البرير » فسأل عما اذا كان فى الامكان الاقـامة فيه حتى يتم اعداد منزله فى (لونجورد) ٠ وكان يملك هذا المنزل رجل طيب القلب يدعى مستر بالكومب ، فقبل عن طيب خاطر ان يترك احدى غرف منزله ـ المكون من خمس غرف ـ خصيصا للامبراطور ٠ ولكن هذا رفض ان يضايقه وفضل ان يشغل ملحقا صغيرا بحديقـــة المنزل مكونا من غرفتين تعلو احداهما الاخرى ، وهناك قضى نابليون شهرين يصحبه مارشان خادمه الخـــاص ولاس كاساس وولده ٠

وكانت هذه الاقامة اسعد فترة قضاها نابليون فى منفاه ٠ واندمج اندماجا كليا مع عائلة المستر بالكومب المكونة من زوجته وبنتين وولدين ، وكان يقضى معظـــم النهار فى صحبتهم يضحك ويمزح ويطرى مسز بالكومب مظهرا اعجابه العظيم بجميل تنسيقها للمنزل والحديقـة فاذا جن الليل عاد الى غرفته بسيطة الاثاث وكان لهـا بابان ونافذتان،ولم يكن للنوافذ ضلف خشبية ولا ستائر تحجز ضوء الشمس اثناء النهار ، وكان لاس كاسـاس

يحكم اغلاق النافذتين كل ليلة بعد ان يأوى الى فراشة اما مارشان والخادم الآخر فانهما كانا يلتقيان بعباءتهما وينامان على عتبة باب الغرفة التى قدر ان يشغلها سيدهما الذى خدماه ابان سطوته وسلطانه ، وكان يحيط بالمنزل حرس مسلح ليحول دون هروب الاسير ٠

وفى ١٠ ديسمبر انتقل الامبراطور وحاشيته الى (لونجورد) ، وكان قد تم اعداد سجنه المكون من بضع غرف صغيرة ، ورأى نابليون بعد فحصها انها لا تكفى لايواء جميع أفراد حاشيته ٠ فنصب خيمتين فى حوش المنزل احداهما للجنرال جورجود ، والاخرى للدكتور اوميرا طبيبه الخاص٠اما الجنرال براترن وزوجته وولده فقد سكنوا منزلا صغيرا على مسيرة ميل من بيت مولاهم ٠

وكانت الرقابة شديدة على الاسرى فكان يحرسهم انى ساروا جنود يحملون بنادقهم ، وحرم عليهم الاتصال بالاهالى أو محادثتهم ، ومنعوا من الدنو من شاطىء الجزيرة ٠ وكانوا يرسلون الاحتجاج تلو الآخر الى الحاكم دون جدوى ٠ وفى ذات يوم زار الامبراطور قائد احدى السفن التى صحبته الى منفاه ، وكان على وشك الرحيل الى أوربا ، وسأله عما اذا كان فى امكانه ان يؤدى له أى خدمة فتدفقت عبارات الاحتجاج من فم نابليون على المعاملة السيئة التى يلقاها هو وحاشيته من اولى الامر بالجزيرة

منزل نابليون وحاشيته في لونجوود . وقد اقام فيه ابتداء
من ١٠ ديسمبر سنة ١٨١٥

ورجاه ان يبلغ الوزراء الانجليز شـديد احتجاجه وعتابه واملى على لاس كاساس مذكرة جاء فيها ما يأتى : ـ

« ان الأمبراطور يرجو ان يسمع ـ برجوع البريد ـ اخبارا عن زوجته وابنه ويريد ان يتأكد اذا كان هـذا الاخير لا زال على قيد الحياة · وهو ينتهز هذه الفرصة ليسجل شديد احتجاجه على المعاملة الشاذة التى يلقاها » ·

« ولقد وضع الامبراطور نفسه بمحض ارادته تحت حماية القانون الانجليزى وكان فى امكانه أن يحتمى بملك آخر كالامبراطور فرانسو والد زوجته مارى لويز ولكنه وضع كل ثقته بدون تبصر فى عدالة الامـة الانجليزية فكان ما كان ·

« ان الامبراطور ليس اسير حرب كما تزعمـون . واذا سلمنا بهذا الامر فان لاسير الحرب حقوقا ثابتة عند جميع دول العالم المتمدينة ، ويطلق سراحه بمجرد أنتهـاء الحرب ·

« اذا كان وزراء انجلترا مصممين على استمرار هذه المعاملة الشاذة ، فان الامبراطور يكون سعيدا لو اصدروا حكما باعدامه فى الحال ، فالموت احب اليه من حياة هى الجحيم بعينه » ·

وكان نابليون فى ثورة غضـبه يملى على افـراد حاشيته احتجاجات شديدة اللهجة ليحملوها الى الحاكم

فيؤجلوا ارسالها بضعة ايام حتى تهدأ ثورته• ثم يسألونه اذا كان مصمما على احتجاجه فيثور فى مبدأ الامر لعدم اطاعتهم أوامره ثم لا يلبث ان يعود اليه هدؤه فيقول « انتم محقون » ان مركزى وكرامتى يحتمان على الصمت والصبر ، ويجب ان اترك امر الاحتجاج لكم وحدكم » •

وحاول نابليون ان يكتب خطابا خاصا الى الملك جورج الرابع وارسل الى حاكم الجزيرة يستأذنه على لسان الجنرال برتران • فاصر الحاكم ان يقرأ الخطاب قبل ارساله ، فرأى نابليون ان ذلك محط لكرامته ، فعدل عن الفكرة •

وفى ١٧ ابريل سنة ١٨١٦ ، وصل حاكم الجزيرة الجديد السير هدسن لو ، ولما قدم الى الامبراطور اشمأز من منظره ، وقال بعد انصرافه :

« ان شكله ووجهه يبعثان القشعريرة فى نفسى ، ولكن يجب ان لا نتسرع فى الحكم ، فقد تكون اخلاقه بعكس ما ينبىء عنه وجهه البشع » •

ولم يصدق حدس نابليون هذه المرة ، فانه لاقى على يدى هذا الحاكم اهوالا نفسية جعلت حياته جحيما لا يطاق ، وعجلت بنهايته المحزنة على يدى شخص قاس وضع نصب عينيه الانتقام للامبراطورية البريطانية ممن دوخها عشرين عاما طوالا • وكانت آيامه الاخيرة سلسلة من الاحزان والنكبات النفسية •

ومرت الأعـوام وحالة الامبراطور النفسية والمرضية تزيد سوءا يوما بعد يوم وخاصة بعد وصـــول الحاكم الجديد ٠

وكانت تقارير شهرى نوفمبر وديسمبر من عـام ١٨١٨ مليئة بتفاصيل تحوى صنوف العـــذاب والآلام والمذلة ٠ وبلغ اليأس بالامبراطور مبلغا عظيما حتى أنه رضخ اخيرا فى اليوم العاشر من شهر يناير عام ١٨١٩ لمشورة اصدقائه ان يزوره الدكتور ستوكا جراح البارجة الانجليزية (كونكرو أى القاهر) ٠ وكان نابليون قد صمم الا يرى طبيبا انجليزيا منذ ان امر الحاكم بترحيـــــل طبيبه الخاص أوميرا ٠ فلما زاره الدكتور ستوكا وجـده فى أشد حالات الالم وانحطاط القوى الجسمية ٠ وقـد زاره مرتين فقط وجد نفسه بعدهما مضطرا لطلب اعفائه من عمله لان الحاكم وحاشيته كانوا يتدخلون فى عمله تدخلا اقلقه وازعجه ٠ فزار الامبراطور فى يوم ٢١ يناير وبرر له اضطراره الى الانسحاب واصبح نابليون مـرة ثانية دون طبيب يعنى به ويشرف على حالته الصحية ٠

ومضت التسعة الأشهر التالية فى عـــذاب مستمر ولم يأل حال حاكم الجزيرة جهدا فى ان ينغص على المريض حياته لدرجة ان نابليون أمر بأن يحكم اغلاق الابواب ولا يسمح لاى شخص من طرف الحاكم ان يزوره ٠ وقد كتب الامبراطور عن هذا فى مذكراته ما يأتى :

« في يوم ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٦ من شهر أغسطس عام ١٨١٩ حاول بعضهم ان يقتحم داري للمرة الاولى منذ مجيئي الى الجزيرة . ولقد اصدرت أوامري بغلق جميع الابواب واحكام قفلها . ولقد سبق ان أنذرت أولى الامر ان انتهاك هذا الحرم الضيق المكون من ست غرف صغيرة لن يتم الا اذا ساروا على جثتي . لقد مضى على عامان وانا اقاسي من مرض الكبد المتفشي في هذه الجزيرة وقد استبعد الدكتور أومييرا في يوليو عام ١٨١٨ والدكتور ستوكا في شهر يناير ١٨١٩ ومنذ ذاك ـ الوقت وانا اقاسي ابشع الالام دون ان يكون على مقربة مني طبيب يداويني ويخفف من آلامي . وبينما اتقلب في فراشي من شدة الام الازمة الكبدية الاخيرة التي مضيت عليها ستة أيام وليال دون تراخ أو هوادة اذا بي افاجأ بهذا التدخل الذي لا معنى له والذي يتنافى مع ابسط قواعد الانسانية » .

واخيرا وافقت الحكومة البريطانية على ان يرسل اصدقاء بونابرت في أوروبا طبيبا من قبلهم . ووقع اختيارهم على الدكتور انتوماركي الذي وصل الى الجزيرة في يوم ١٩ سبتمبر من العام نفسه . وقد جاء معه اثنان من رجال الكنيسة لان نابليون ام ان تقام الصلوات والمراسم الدينية في [illegible] بالجزيرة . وكان ـ احدهما وهو الاب [illegible] في السن بينما كان الاخر وهو الاب [illegible] العمر . وكانت

للامبراطور معهما صولات وجولات فى السياســـة والدين مما روح عن نفسه المكروبة وواساه فى محنته . وفى ٢١ سبتمبر استقبل نابليون طبيبه الجديد للمــــرة الاولى ، وكان ذلك فى الساعة الثانية والربع ، وعندما دخـــل الطبيب الغرفة وجدها مظلمة وكان المريض راقدا عـــلى سرير فى احد اركان غرفة حقيرة الاثاث فلم يره فى مبدأ الامر لولا انه سمع صوتا خافتا رقيقا يناديه ويدعـــوه للجلوس . ثم اخذ نابليون يسأله بدقة عن مولده وعائلته ومؤهلاته الطبية والدوافع التى جعلته يقبل المجىء الى هذه الصخرة النائية ثم اخذ يسأله عن اخبار اصدقائه القدماء فى أوروبا .

وفى اليوم التالى عاد الطبيب مريضه حوالى العاشرة صباحا . وكان الامبراطور لا يزال ملازما فراشه بعد ان مضى ليلة حافلة بالآلام والأوجاع . وبينما هما يتجاذبان اطراف الحديث وقفت عربة بباب المنزل ، وكانت محملة بالصناديق والكتب الواردة للامبراطور من الخارج . ولما أمر بفتحها وجدها مليئة بالكتب والمجلدات فنظر اليهـــا بونابرت نظرة فاحصة وقال لمن حوله ! ليست الكتب هى الشىء الوحيد الذى يبحث عنه والد فى رسالة واردة من الخارج . انظروا داخل الصندوق وافحصوه جيدا فلابد أن هناك شيئـــا أخر أحب الى قلبى من كل هذا .. » وقـــد صدق حدس الامبراطور لانهم وجدوا صورة لابنــــه بين الكتب . فما رآها حتى انهارت الدموع من عينيه ونظـــر

اليها طويلا ثم قبلها بحرقة وشوق وقال وهو يبـــكي : « ولدى العزيز ! ستكون خير خلف لوالدك اذا قسم لك ان تعيش رغم دسائس اعدائى ·· »

وامضى الامبراطور ليلته ساهرا يقرأ الجـــرائد والمجلدات التى وردت من الخارج فلـا دخل عليه الطبيب فى الصباح وجده منهكا متعبا · وكان لايزال ممســـكا بصورة ولده فناولها الى طبيبه قائلا : « ارجوك ان تضعها على رف المدفأة بجانب صـــورة والدته ماريا اويزا · الا ترى الصورتين الأخريين ·· ! أنهما للحبيبة جوزيفين ·· كم هى عزيزة الى قلبى ·· لكم احببتها ولازلت احبها ·· أن صورتها وذكراها يؤنساني فى وحدتى المؤلمة ·· الا ترى بعينيك مظاهر العظمة والابهة التى تحيط بى فى هذا الركن الحقير ·· ! شمعدانان بســـيطان ·· فنجانان مذهبان ·· مقص صغير ·· كوب ماء ·· زجاجتان من ماء الكولونيا ·· سرير حديدى ·· هذا كل ما خرجت به من عظمة الماضى ·· اين هذا من قصور التويلرى والاليزيه ·· ولكن كل هذا يهون عندما اتذكر ان ما اضحيه ليس الا حبا فى فرنسا واهلها ·· » ·

وعندما جال الطبيب ببصره فى الغرفه لاحـظ آثار الرطوبة الشديدة على جدرانها لدرجـــة اتلفت جميع الابسطة المزركشة التى غطيت بها الجـــدران · وكان مرسوما على احداها صورة نسر كبير فنظر اليه نابليون

وقال وهو يبتسم فى مرارة : « ايها النسر العزيز . كان خليقا بك أن تظل محلقا فى الفضاء الواســـع ، لولا ان الذين ظللتهم بجناحيك خذلوك ونتفوا ربشك .. » .

ومرت الأيام ومضت أربع سنوات وآلام بونابرت فى ازدياد ، وبدأ سنته الخامسة وهو يشعر بضعف جسمى وانحطاط معنوى شديدين . وفى يوم ١٨ نوفمبر شعر بانتعاش على غير عادة رغم ضعفه . وبينما هو يمشى مع طبيبه فى حديقته الصغيرة التفت اليه فجأة وقال : « بماذا تشير على يا طبيبى العزيز . أما من وسيلة ألجأ اليهـا لأبعث النشاط الى أطراف جسمى ؟ ..

فأجابه الطبيب « يا حبذا لو حاولت ممارسة أى نوع من الرياضة . ما رأى جلالتكم فى حـــــرث الارض وتعهد هذا البستان الصغير بنفسك ؟

فظهرت علامات السرور على وجه نابليون وصــاح قائلا : « يا لها من فكرة صائبة . سوف ابدأ من باكر » .

وفى صباح اليوم التالى ارسل فى طلب طبيبه وقابله عند باب المنزل والفأس فى يده وقال له وهو يضحك : « ها هو مريضك يطيع اوامرك وينفذها حرفيا ودون تردد اننى اعتقد ان الفأس والمعول خير من اقراصك وأدويتك المقيتة التى لن اعود اليها ثانية .. » ثم بدأ يحرث الارض بهمة سرعان ما تخاذلت بعد دقائق والتفت الى الطبيب

وقال : انهـا عملية شاقـة حقا ـ أراك تضحك منى ولكن مهلا يا عزيزى فسوف اروض نفسى وسترى انى سأحذق هذه الرياضة الجديدة عما قريب ٠٠ »٠

وسرعان ما اعتاد جسم الامبراطور ويداه الناعمتان الرياضة الجديدة واشرك معه فى العمل جميع رجـال حاشيته ورفضت السيدات القيام بنصيبهن رغم الحاحه واغرائه ٠ وتحولت الحديقة الجرداء الى بستان منسق ٠٠ فهنا حوض ٠ وهناك قناه ٠٠ وزرعت الاشجار حـول المنزل لتعكس عليه ظلها وترطب من حرارته المرهقة ٠٠ وسمع الحاكم بمجهودات اسيره فى سـبيل رفاهية لونجوود فحام حول المنزل وشاهد الطبيب واقفا وحده فى الحديقة فناداه فى احتراس وقال له : « هل انت الذى اشار على الجنرال بونابرت بالقيام بهذا المجهود الشاق ؟» « فأجاب الطبيب » نعم « فهز الحاكم كتفيه وقال : « أنه مجهود ضائع ٠ ألا تعلم ان كل هذه الشجيرات سوف تموت ٠ ولن تنمو واحدة منها مهما بذلتم من جهود » ٠ ثم انصرف ولما قص الطبيب تفاصيل الحديث على نابليون صـاح هـذا قائلا : « ياللوغد ٠٠ الا يريد ان يتركنى وحدى دقيقة واحدة٠اننى اعرف انه يتمنى موتى وينتظره بفارغ الصبر ٠ ولقد طالت حياتى لدرجة ازعجته واقلقته ٠٠ ولكن ليقر عينا فهذا الجو الخانق سوف يقضى عـلى عاجلا ٠٠ وعندها يستريح بال سجانى العزيز ٠٠ » ٠

وأراد الامبراطور ذات يوم عقب هـــذا الحادث أن يسخر من سجانه فأوعز الى الأب فيجنـــالى أن يرتدى احدى حلله ويمتطى صهوة جواده ويمســـــك بمنظاره ويتجول بحصانه متظاهرا بأنه يستكشف ما حول منطقته الحرام . وسرعان ما قامت الدنيا وقعدت وجـــاء الحاكم مسرعا الى لونجوود ولما وجد أنه لا معنى للضجة القائمـة انسحب في هدوء وقال للطبيب وهـــو ينصرف : قل للجنرال اننى فهمت النكتة واننى لن اقبلها مرة ثانيـة » فلما سمع الامبراطور بذلك ضحك وقال : الواقع اننا ضايقناه كثيرا بهذه المداعبة . اننى ارثى له » .

٢٢ أكتوبر سنة ١٨٢٠ :

ها قد مضت على الامبراطور خمس سنوات وهـــو يعانى الآلام القاسية فى منفاه النائى بسانت هيلانه حيث تمر الايام والاسابيع ببطء قاس ليس اقسى منه الا الزوابع والضباب والاعاصير التى لا تنقطع معظم أيام السنة .

شعر الامبراطور بتحسن قليل فى صحته ، فنـــادى طبيبـــه الخاص الدكتور انتوماركى ★ ، وقال لـــه ، « انى

(★) جاء أنتوماركى الى الجزيرة موفدا من قبل والده الامبراطور واصدقائه فى أوروبا بعد أن عزل حاكم الجزيرة طبيبه الخاص أوميرا لانه أبى أن يكون جاسوسا له . ولما أمر بترحيله عام ١٨١٨ رفض نابليون أن يتعاون مع أى طبيب من قبل الحاكم وفضل إن يتحمل الآلام الهائلة التى كان يقاسيها على أن يكشف عليه طبيب يعينه =

اعاهدك يا دكتور متى من الله على بالشفاء ان ارسلك الى أوروبا لتتم ابحاثك ودراساتك ، فحرام على ان اربط مستقبلك بمستقبلى وادعك تقضى حياتك على هذه الصخرة المشئومة . لقد اخبرتنى على ما اذكر انك لم تر فرنسا بعد ، فاذا اتيحت لك الفرصة ، فانك سترى هناك التماثيل التى غمرت بها احياء فرنسا ايام سطوتى وسلطانى . آه لقد مضت هذه الفترة كوميض البرق ولكنى اعتقد انى فعلت فيها اشياء نافعة ، فلقد خلدت الثورة الفرنسية فى القانون الذى وضعته والذى سيكون نبراسا تهتدى به الاجيال القادمة ، ودخلت ايطاليا فوجدت ان مواصلاتها مع باريس شاقة متعبة ، فشققت طريقا فى وادى الرون تطلب نفقات ومشاق هائلة ، اذ كان علينا ان نخترق طبقات صلبة من الجرانيت تردد امامها الرومان القدماء عن تنفيذ هذا المشروع » .

وهنا شعر الامبراطور بوهن فسكت عن الكلام .

= سجانه . وكان الحاكم يقول : « اذا كان نابليون يرفض مناظرة طبيب انجليزى فذلك لأنه متمارض يخشى أن تنكشف حيلته » .

وقد أحسن الحاكم استقبال انتومارکی فی زیارته الاولى ومضى معه وقتا طويلا حاول فيه اقناعه أن مرض بونابرت لم يكن الا خدعة وتمثيلا » .

٢٦ أكتوبر :

قام الامبراطور من مقعده رغم ضعفه واخذ يسير فى بطء نحو حوض صغير بناه بنفسه ، واخذ يتسلى بمراقبة اسماك صغيرة حمراء اللون وهى تلعب فى المـاء ، وكان يرمى لها قطعا صغيرة من الخبز ويبتسم فى تثـــاقل لرؤيتها وهى تلتهم الخبر فى نشاط عجيب ، وكأنهـــا اعادت لذاكرته أيام سطوته ونشاطه حينما كان جـــذوة دائمة الاتقاد • وفجأة لاحظ ان بعضـــها ميت والبعض الآخر كسول على غير عادة ، فنظر اليها اسفا وقال : « الا ترون ان كل ما احب يسبقنيً الى مصير أنا اليه سائر • ان ملاك الموت أو شيطانه قد أنس الى هذا المكان وها هـو يسلى نفسه بقتل الحشرات والاسماك قبل ان يسطو على الرأس الكبير » • واخذ الامبراطور منذ ذلك الحين يتردد يوميا ليطمئن على اصدقائه الصغار ويلح على طبيبـــه ، ليكشف سر موتهم الفجائى • وفكر في تحليل الماء ، ولكن الامبراطور وجد ان هذا اجراء بطىء لا يسعف • وكان يرغمه على الذهاب عدة مرات فى اليـوم ليرى اذا كانت الاسماك بخير • واخذ الطبيب يقدح زناد فكره ، علّه يتوصل الى اكتشاف يشفى به غليل الامبراطور • واخيرا وجد ان المادة التى استعملت فى بناء قاع الحوض تحتوى على نسبة كبيرة من النحاس ، كانت كافية ليتسمم بهـا السمك • وفى الحال، نقلت الاسماك الحية الى برميل من الخشب ، فكان ذلك سببا فى انقاذ البقية الباقيـــة من

السمك الذى صار هوية من كان ينازل الابطال ويداعب بالسيف والنار ٠

١٩ نوفمبر :

كان نوم الامبراطور مضطربا فى الأيام الأخيرة وكان الم الكبد يعاوده كل ساعة ، وكانت قـــواه قد انحطت ونشاطه قد غادره ٠ فأخذ يناجى طبيبه قائلا : « ما ألذ الراحة يا طبيبى العزيز ان رفاهية الفراش دونها اى عرش فى الوجود ٠ ايه ، ما اعظم التغيير الذى طرأ على نفسى وعقلى وتفكيرى ايستطيب الفراش والراحة من كان مثال النشاط ومن كان تمضى عليه ليال بأكملها لا يغمض له فيها جفن ٠٠ بل يفكر ويفكر ٠٠ ويعمل ويعمل ٠٠ وطالما امليت أوامرى على اربعة أو خمسة اشخاص مختلفين فى وقت واحد ولكنى كنت اذ ذاك ـ نابليون بونابرت ، أما الآن فاننى لا شىء لقد غادرتنى قواى ومواهبى واعصابى واصبحت الحياة اياما تقضى لا عمل فيها ولا امل ٠٠ بالله يا طبيبى العزيز لا تلح على فى أخذ الدواء فقد غلب الداء وان يغلب » ٠

١٦ ديسمبر :

اشتد ضعف الامبراطور ، وفى الصباح عقب ليـــل قضاه فى ألم مستمر حاول مغادرة الفراش ، ولكن قواه خانته فارتمى على مقعد قريب وأخذ يتمتم قائـــلا « حتى

رجلاى تخونانى ! رباه ماذا بقى منى اذن ؟ هيكل عظمى بلا حركة ولا تفكير ! حقاً ان لكل شيء نهاية .. وها هى نهايتى تقترب وعلام آسف ولم يبق لى فى الحياة غاية ، ولم يعد لبقائى فى الدنيا فائدة ؟ » .

وازدادت الحالة الصحية سوءا خلال شهرى يناير وفبراير سنة ١٨٢١ وأخذت الأيام تمر كالسنين أو أقل كالاجيال طولا . فالالم والمرض المستمران على حالهما والضباب والزوابع والامطار لا تنقطع . وقد حل بنابليون يأس شديد وخاصة عندما قرأ فى الجرائد عن وفاة شقيقته اليزا .

٢٩ مارس سنة ١٨٢١ :

اخذت النهاية تقترب والامبراطور ينتظرها باطمئنان وثبات عجيبين . وفى ذلك اليوم خاطب طبيبه قائلا : « اننى ارفع راية العصيان فى وجه كل من يحاول ارغامى على تعاطى اى دواء . اننى شخص طالما واجه الموت بلا خوف وتعرض لاشد الاخطار هولا ، ولكن ليس ابغض الى نفسى من ان تمس شفتى كأس الدواء ، لعلك تقول عنى فى نفسك اننى طفل مدلل .. ليكن » ثم التفت الى مدام برثران وقال : خبرينى بربك كيف تطاوعك نفسك على ابتلاع الحبوب والادوية العديدة التى يصفها لك طبيبا طيب القلب ؟ » فاجابت : « اننى اتناولها لان أوامر

الطبيب مقدسة ويجب اطاعتها ، واني انصح جلالتك أن تحذو حذوى » • فهز رأسه في ضعف وقال : اننى اذن الوحيد بينكم الذى يثور فى وجه الطب والطبيب • سوف اطيعك يا مدام برتران وأتناول الدواء • قال هذا ثم تناول الفنجان والتهم الجرعة دفعة واحدة • (*)

٣١ مارس :

كان حاكم الجزيرة السير هدسون لو قد كلف أحد الضباط ان يقدم اليه تقريرا يوميا ، بأنه رأى «الجنرال بونابرت) كما كان يسميه ، امعانا فى الاذلال وتجاهلا لعظمة ماضى هذا الاسير الكبير •وقد قام الضابط بواجبه منذ وطئت قدما نابليون ارض الجزيرة ، وقد لازم الامبراطور فراشه منذ ١٧ مارس ولم تشأ عواطف الضابط الرقيقة ان ترغمه على اطاعة امر رئيسه ، واقتحام

(★) أكثر انتومارکی من وصف المقيئات والسهلات حتى نفذ صبر نابليون منها • وفى ذات يوم اقترح وضع حراقه على منطقة الكبد سببت للامبراطور ألما شديدا فصاح فى وجهه عند زيارته له فى صباح اليوم التالى : « أنت جاهل وأنا أجهل منك لتنازلى بقبول علاجك •• ألا ترى فى تعذيب (هدسون لو) ما يكفينى • وكان انتومارکی يدرك مقدار ثقة بونابرت فى كفاءته وكثيرا ما طلب مغادرة الجزيرة ثم يعود فيرضى بالبقاء حتى عين الحاكم الطبيب ارنوت وكان أكثر كفاءه وحاز ثقة نابليون لأنه قام بواجبه فى حدود المهنة والضمير والشرف • فتعاون مع انتومارکی فى العناية بالمريض العظيم •

اغرفة المحتضر العظيم ليقدم تقريره اليـومى بأنه رأى (الجنرال بونابرت) • فهاج السير هدسون وماج وسار تتبعه حاشيته الى منزل بونابرت واخذ يحوم مزمجرا مهددا الضابط باقسى انواع العقاب اذا لم ينفذ الاوامر الصادرة اليه • فذهب الضابط الى الجنرال مونتولون وسأله ان يساعده فى محنته دون ان يكون فى ذلك ايذاء لعواطف الامبراطور • فساعده الجنرال ، بأن جعله ينتظـــر فى الخارج وبذلك اتاح للضابط ان يسرق نظرة الى الغرفة المظلمة والى الامبراطور ، وامكنه تقديم تقريره اليــومى لرئيسه المتعجرف • ولكن هذا لم يرضـــه بل هدد بأنه اذا لم يسمح للضابط بالدخول يوميا الى غرفة (الجنرال بونابرت) فانه سيأتى بنفسه ومعه حاشـــيته ويقتحم الغرفة غير آبه بالعواقب • وعبثا حاول الجنرال مونتولون ان يثنيه عن عزمه ، مكررا على مسمعه الواجب الانسانى نحو مريض يحتضر بغض النظر عن شخصيته • فلم يعره الحاكم اى اهتمام واقتحم المنزل ولكن الدكتور انتوماركى كان قد سمع الضجة التى فى الخارج ، فخرج وهو ثائر على هذا الانسان الذى قد قلبه من صخر ولما التقت عيناه بعين الحاكم صـــــــاح الاخير بكبرياء « اين الجنرال بونابرت » •

فأجاب الطبيب :

« الجنرال بونابرت غير موجود هنا » •

فقال الحاكم : « ومتى اختفى ، واين ؟ » .

فأجاب الطبيب بهدوء : « ان آخر مرة سمعت فيها باسم الجنرال بونابرت كانت فى معركة أبو قير ، التى هــزم فيها حلفاءكم ورماهم فى البحر ، وكانت معركة فاصلة حاز فيها نصرا حاسما . ومنذ ذلك الوقت لم اعد اسمع بالجنرال بونابرت بل اصبح الامبراطور بونابرت ملء القلوب والاسماع ، ترتعد له كل الفرائص وتتألب عليه كل الدول التى تخشى بأسمه . فهلا تركت رجلا هذا مجده وماضيه يموت فى هدوء ؟ » فقــال الحاكم : « اراك لازلت تتكلم عن (الامبراطور) .

واحتدت المناقشة بين الطبيب والحاكم ، وكاد يحدث مالا تحمد عقباه لولا ان تدخل الكونت برتران والجنرال مونتولن وتوسطا لدى الامبراطور لكى يقبل حلا وسطا ، وهو : ان يزروه يوميا من قبل الحاكم طبيب يثق فيه الطرفان وهو الدكتور ارنوت ، وهذا كان عليه ان يقدم تقريرا يوميا الدكتور ارنوت ، وهذا كان عليه ان يقدم تقريرا يوميا بدل الذى كان يقدمه الضابط .

٢ أبريل :

أعدت الحكومة البريطانية منزلا مريحا للامبراطور ليستعيض عنه بالمنزل الذى يقيم فيه . وهو منزل رطب اتخذت منه الفئران عشا ووجدت العيش فيه سهلا والح

الدكتور ارنوت فى نقل الامبراطور فى الحال . وكان الاخير ينصت الى ارنوت وهو يتكلم دون ان ينبس ببنت شفة ، ولما انتهى من كلامه التفت الى طبيبه انتوماركى وقال : « هل ترى مثل رأيه ؟ » .

فأجاب : « كلا يا مولاى ان درجة حرارتكم مرتفعة وقد يكون لنقلكم من منزل الى منزل اوخم العواقب » . فالتفت الامبراطور الى الدكتور أرنوت وقال : « ها قد سمعت باذنيك . يجب الا تفكر بعد الآن فيما عرضته على » ، وحاول ارنوت أن يؤثر عليه ، ولكن الحاحه لم يؤد الى نتيجة .

٦ أبريل :

مضت عشرون يوما منذ حلق الامبراطور ذقنه للمرة الاخيرة وقد حاول الطبيب ان يقنعه بالسماح لاحد خدمه بأن يحلق له ذقنه ، ولكنه رفض رفضا باتا فى أول الامر . ولكن لما طالت لحيته بدرجة ازعجته ، بدأت قناته تلين وافضى لطبيبه برغبته ، فاقترح هذا ان يرسلوا فى طلب حلاق ليقوم بالمهمة . ففكر الامبراطور طويلا ثم قال اننى دائما كنت احلق بيدى ، ولم اسمح حتى الآن ليد انسان ان تمس وجهى ولكننى الآن لا اقوى على عمل شىء وليس على الا الاذعان والخضوع لما تأمر به ... ولكن ، لا .. لن ادعهم يقولون اننى بلغ بى الضعف

والوهن حدا سمحت معه لمخلوق من البشر ان يمس وجهى ولن ينال هذا الشرف الا أنت » ٠

فاحتج الطبيب بلطـــف قائلا : انه كان يتمنى ان يفعل ما يأمره به الامبراطور ولكنه لا خبرة له مطلقا بهذا الموضوع ، ونصح جلالته بأن يرضخ لحكم الظرف القاسى ويسمح لشخص متمرن ان يحلق له ٠

فاجاب الامبراطور : حسنا ٠٠ ليكن مـــا تريد ٠ والامر لله » ٠

١٦ أبريل :

امضى الامبراطور الصباح كله فى كتابة وصيته ، وقد ضمنها ما يأتى :

١ ــ أوصى بأن ادفن على ضفاف السين لاشعر فى آخرتى بأننى بين الشعب الفرنسى الذى احببته من كل قلبى ٠

٢ ــ اغادر هذه الدنيا وقلبى مفعم بالحب والاعجـاب بزوجتى العزيزة الامبراطورة مارى لويز ، واوصيها خيرا بابننا الوحيد ، واتوسل اليها ان تحميه من جو الدسائس والمؤامرات التى يشاء القدر ان تحاك حوله منذ طفـولته البريئة ٠

٣ ـ أوصى ابنى ان يذكر دائما انه ولد فرنسيا فيجب ان يعيش لفرنسا ويموت فى سبيلها وليذكر دائما مبدئى الذى عملت به وهو « كل شيء لفرنسا وللشعب الفرنسى » .

ثم أوصى بأعانات ومعاشات تعطى لجميع أصدقائه القدماء الذين لا يزالون على قيد الحياة وكذلك ارامل وأطفال ضباطه القدماء الذين بذلوا دماءهم فى سبيله .

ثم كتب لابنه وصية طويلة اوصاه فيها بأن لا يجعل نصب عينيه الانتقام لابيه ، بل العكس نصحه بأن يتعظ بمصيره ، وأن لا يمضى فى طريق الحرب والفتوحات متشبها به . بل يعيش للسلام وللسلام وحده ، فأن القرن الواحد لا يحتمل حربين ، وان أرض فرنسا مملوءة بالخيرات ، فعليه ان يستغلها لمصلحة شعبه النبيل . ثم كتب يقول :

« ولابد وان يتولد فى كل مكان شعور بالعطف على نظرا للحالة اليائسة التى صرت اليها ، وهذا العطف هو خير ميراث اتركه لابنى اذ سينعكس عليه وسيكون عونا له فى مستقبله ، ويقينى ان انجلترا ستساعد على رجوع ابنى الى فرنسا لتمحو بذلك الاثر الذى تركته فى دول العالم اجمع ، نتيجة المعاملة التى الاقيها واقاسى من ويلاتها فى منفاى . وانصح ابنى اذا اراد ان يعيش فى سلام ووئام مع انجلترا بأن يراعى قبل كل شيء مصالحها

التجارية • والسبيل الوحيد الذى عليه ان يسلكه هو ان يتقاسم معها تجارة العالم ، ويدخل معها فى صلح دائم •

« ان البوريون لن يبقوا فى الحكم طويلا بعد موتى ، ولابد ان تسنح الفرصة لابنى للعودة الى عرش ابيه ، ولكن اياه ان يعتمد على قوى أجنبية للوصول الى هذا العرش •

« أوصيه خيرا بعائلته » ان امى العجوز الطيبة شديدة المحافظة على التقاليد واخوى جوزيف وأوجين فى وسعهما ان يسديا اليه النصح والارشاد •

وأذا قدر له البقاء بالمنفى ، فعليه أن يتزوج باحدى بنات أعمامه أو عماته • أما اذا أرجع الى العرش ، فعليه أن ينزوج بأميرة روسية ، فان الارتباط بروسيا مما يزيد فى نفوذ فرنسا فى الخارج •

وختم وصيته بقوله :

أوصى ابنى بأن يكثر من قراءة تاريخ الأمم والحروب والفتوحات، فالتاريخ وعظاته ودروسه أكبر فلسفة يجب ان يقتدى بها ملك • ولكن ما لم يكن فى قرارة نفسه متمتعا بنصيب كبير من حب الخير والرغبة عن الشرور والآثام ، فان كل فلسفات العالم والتاريخ لن

تجـدى قراءتها شيئا . ولكنى أرجـو من كل قلبى ، أن يهيئه الله لمستقبله الذى لا يزال فى عالم الغيب .

٢١ أبريل : طلب الامبراطـور أن يحضر له الأب (فيجنالى) وقال له :

اننى أطلب منك أيها الاب أن تقوم بالمراسم الدينية عقب موتى وأن تصلى على روحى بالكنيسة فى حضور جمهور المصلين . وأتوسل اليك أن تضع الصليب على قلبى وأن لا تقف صلواتك حتى أوارى التراب .

٢٥ أبريل : نام الامبراطور فى هدوء معظم الليـل وكان (الكونت مونتولن) جالسا بجوار السرير يراقبه . وفى الساعة الرابعة صباحا استيقظ فجأة وقال وهو فى شبه ذهول :

لقد رأيت الحبيبة جوزفين الآن ، وقد رفضت أن تضمنى الى صدرها اذ اختفت فى اللحظة التى كنت عـلى وشك تقبيلها فيهـا .. انها لم تتغير كثيرا .. ولا تزال عيناها مملوءتين بالاخلاص والمحبة . لقـــد قالت لى اننا سنتقابل فى القريب العاجل . واننا لن نفترق بعد ذلك .

ثم غلب عليه النعاس ونام ثانية . وفى الصباح أملى على الكونت نص الخطاب الذى يبلغ به الحاكم خبر موته وهذا نصه :

جناب الحاكم . لفظ الامبراطور النفس الاخير في يوم ..... الساعة .... بعد مرض طويل قاس ، وأن لى عظيم الشرف أن أبلغكم أن الامبراطور أوصـــانى أن أتصـــل بكم مباشرة ، للتحـــدث فى أمر نقل جثمـــانه الى أرض الوطن وكذلك ارجاع رفاقه الى وطنهم الذى ابتعدوا عنه طويلا . وانى لازلت خادمكم المطيع .

الامضاء

الكونت مونتولن

٢٨ ابريل :

بلغ الضعف بالامبراطور مبلغا عظيما واخذ يتحدث عن موته بهدوء عجيب قائلا :

« أوصيكم أن تشرحوا جثتى بعد موتى ، ولكـــن عدونى ان لا يمسها طبيب انجليزى . ولكـــن اذا كانت الحاجة ماسة لمساعدة احدهم ، فان الدكتـــور ارنوت هو الوحيد الذى اسمح له بذلك ، فاذا ما فتحتم صدرى فانتزعوا قلبى وضعوه فى زجاجة بها كحول « سبرتو » وارسلوها الى برما حيث تقطن مارى لويز واخبروهـــا اننى احببتها وبقيت على عهدها طول حياتى .

« وارجو منكم ان توجهوا عناية خاصة بمعـــدتى ، وتكتبوا عما تجدونه فيها تقريرا وافيا ، وترسلوه لابنى

العزيز فأن هذا القيء المستعصى ليثير فى الشكوك • ان معدتى هى اصل البلاء • لقد مات والدى بسرطان المعدة، واننى اتوجس اننى مصاب بنفس المرض • ولقد انقلب الشك عندى يقينا عندما صار القيء مســــــتمرا • فلا تنسوا ان تخبروا ابنى بكل مشاهدتكم عن سبب موتى حتى تساعدوه على تجنب هذا الداء الوراثى ، وصفوا له الدواء اللازم لذلك فاذا ما عدتم الى روما ، فعليكم بزيارة والدتى العزيزة • فاذا سألتكم عنى ، فخبروها عن كل شيء •• عن معيشتى فى هذه الجزيرة النائية •• عــن مرضى •• وعن موتى • فعسى أن تجد فى هذه التفاصيل عزاء وسلوى ••

وارتمى الامبراطور على سريره وهو منهوك القوى ، ثم راح فى ســــبات عميق وأخـــذ يتمتم بكلمــــات غير مفهومة •

٢ مايو :

اشتدت حالة الامبراطور وارتفعت حرارته وأخــذ يهذى مستعرضا تاريخ حياته فتارة ينادى فرنسا وأخرى أبنه ، وكان يبدو كأنه يتحدث مع رفاقه وكبار قــــواده الذين عرفهم فى أوج عظمته ومجده ، وسمع وهو يقــول « ستأينجل •• ديزى •• ماسينا •• النصر القريب •• فهيا اهجموا وشددوا الضغط على العدو •• »

وعقب ذلك حاول القفز من فراشه ، فخانته قدماه وسقط على الارض فاقد الوعى • ويظهر أن تهيج الامبراطور نفخ فيه قوة فوق العادة فهجم على (مونتولون) فى هذيانه وألقاه على الارض وشدد عليه الخناق حتى كاد يزهقه لولا أن (أرشميوات) كان فى الغرفة المجاورة فأسرع عند سماع الجلبة وساعد مونتولون على ارجاع المريض الى فراشه • وبعد لحظة أشار اليهم بيده طالبا جرعة ماء فقدموا له اسفنجة مبللة لانه لم يعد قادرا على البلع ، هذا الذى دوخ ـ الامصار • !!

وفى الساعة التاسعة صباحا ، هبطت الحرارة وعاد اليه وعيه فنادى طبيبه وقال :

« يجب أن تتذكر جيدا كل ما أوصيتك به فلا تهمل القيام بفحص معدتى بدقة بعد موتى لانى أريد أن ينتفع ابنى بتجاربكم ، وأن نتعاون جميعا على انقاذه من الوقوع فى براثن هذا الداء اللعين • وأوصيك أن تحاول الاتصال به وترشده الى ما يجب عليه عمله لكى يقى نفسه من هذا المرض • وهذا آخر مطلب أسألك القيام به » •

وعند الظهر عاد المرض الى شدته ، ونظر الامبراطور الى طبيبه قائلا وهو فى رباطة جأشه « ان حالتى سيئة جدا وها هى النهاية تقترب » • ثم فقد وعيه ثانية واستغرق فى غيبوبة طويلة ، كان يفيق منها أحيانا ليوصى

رفاقه ببعض أهل الجزيرة الذين يعطف عليهم بصفة خاصة ، والواقع أن نابليون كان معبود سكان الجزيرة جميعا من أكبرهم الى أصغرهم مقاما وسنا ، وكان سيلهم لا ينقطع ، وهم يترددون على المنزل متلهفين على أخبار المريض العظيم ، وكان هذا لا يملك نفسه من البكاء لرؤية مظاهر الاخلاص تبدو فى كل حركة من حركاتهم ٠

٣ مايو : انتعش الأمبرطور قليلا فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وأخذ يتحدث فى ضعف مع الذين حوله قائلا : « هاقد بدت الساعة ٠٠ ساعة موتى وساعة رجوعكم الى فرنسا ٠ لقد شاطرتمونى آلام النفى ، وآمل أن تخلصوا لذكراى كما أخلصتم لى فى حياتى ٠ لقد اضطرتنى الظروف أن أؤجل كثيرا من ضروب الاصلاح التى كنت أنوى أن أغدقها على فرنسا والشعب الفرنسى ولكن فرنسا رغم ذلك لا تنقسم على ، بل هى لازالت تذكرنى بالعطف وتقدس اسمى وذكراى ، فكونوا مثلها مخلصين للمبادىء التى كافحنا سويا من أجلها ٠

ثم أرسل فى طلب الاب (فيجنالى) ، وطلب ان يترك واياه وحدهما ٠ فخرج جميع من بالغرفة الا الاب وتلقى الامبراطور فى سكون ووحدة طقوسة الدينية الاخيرة وعقب انتهائها دخل الكونت (مونتولين) الغرفة ثانية ، فوجد علامات الاطمئنان والهدوء تبدو على وجه نابليون، وبعد حديث قصير نام نوما هادئا ٠ وعندما استيقظ فى الصباح نادى خادمه وقال له :

« افتح الشباك يا مارشان لكى استنشق الهـواء العليل الذى أرسله لنا الله » ·

٥ مايو :

كان ليـل ٤ مايو مظلما يقبض النفـوس كثير الاعاصير ، غزير الامطار ، فاختلعت الرياح كل الإشـجار التى تعهدها الامبراطور بعنايته فلم تبق منها واحدة بل ألقتها على الأرض ، وكأنها تخر سجدا لرهبة الليل وحزن الموقف · وكان المريض العظيم فاقدا الوعى لا يحس بمـا يجرى حوله ، يتقلب ويتنهد تنهدا عميقا بين آن وآخر · وفى أثناء ذلك سمح لأطفال القرية أن يمروا أمام هـذا الرجل الذى طالما حباهم بعطفه وكانوا لم يحظوا برؤيتـه منذ شهر فهالهم ما رأوه من تغير شكله وملامحه التى لم يعهدوا فيها الا مظاهر الحب والحنان ، وبعد تردد قصير هجموا نحو فراش المريض وأخذوا يقبلون يديـه مبللين اياها بدموعهم البريئة الغزيرة · وكان المنظـر مؤثرا فلم يتمالك جميع الواقفين من البكاء كالاطفـال ، واغمى على واحد منهم وهو (ابن برتران) الذى سمى نابليون تيمنا بالامبراطور · وفى أثناء هذه المناحة ، دخل الغرفة أحد الخدم المخلصين وكان قد لازم الفراش مدة ثمانيـة واربعين يوما ، وكان شاحب اللون مرتعش اليدين مـن تأثير الحمى وكان يهذى ويبكى وهو يتقدم فى ضعف نحو

سرير سيده ، حتى اذا ما وصل اليه جلس بجانبه وأخذ يتمتم باستمرار : انا فداؤه انا فداؤه ٠

وازدادت الحالة سوءا اثناء الليل وكان الامبراطور يهذى وينادى « فرنسا الجيش ٠٠ » وسمع وهو يصيح عليها مرة ثانية فى الساعة السادسة صباحا واستمر فى غيبوبته العميقة حتى الساعة السادسة مساء ٠ وكان طول هذه المدة نائما على ظهره يتنفس بصعوبة وقد تدلت يده اليمنى خارج فراشه ٠ أما وجهه وعيناه فقد تجلى فيهما هدوء واطمئنان للمصير المحتوم وعندما آذنت الشمس بالمغيب واخذت فى الاختفاء وراء الافق صعدت معها روح نابليون الى خالقها وكانت آخر كلمات قالها (جزيرة البا ٠٠ نابليون ٠٠ الجيش ، وجوزفين) ٠

وكان نابليون قد أوصى أن يدفن على ضفاف السين، فاذا لم يكن ذلك ممكنا ففى جزيرة أجاكسو حيث يدفن اجداده ٠٠ فاذا رفضت الحكومة الانجليزية هذا ايضا فلتكن رقدته الاخيرة فى (سانت هيلانه) تحت شجرة معينة ، طالما استظل بجوار النهر الصغير الذى كثيرا ما روى عطشه بمياهه الباردة العذبة فذهب اصدقاؤه بعد الوفاة مباشرة الى حاكم الجزيرة ، وتضرعوا اليه ان يتوسط لدى حكومته للسماح بنقل الرفات الى أرض الوطن ٠ ولكنه صارحهم بأن لديه أوامر من حكومته تقضى بدفن (الجنرال بونابرت) فى جزيرة سانت هيلانة ، وانه

لا مانع عنده ان يدفن (الجنرال) فى أى بقعة من الجزيرة يفضلونها • كذلك رفض بتاتا أن يسمح بحجـــز القلب والمعدة بعد اجراء الصفة التشريحية كما أوصى نابليون ، بل صمم أن تدفن جميع أجزاء جســـم الجنرال فى أرض الجزيرة •

وبعد تشريح الجثة (*) أعد الجثمـــــان للدفن ، فألبسه الخادم الخاص للمتوفى الحلة التى اعتـــاد أن يلبسها فى حياته ـ أى الصديرية والبنطلون الابيضـــان ورابطة العنق السوداء والاحذية الطويلة والقبعة المشهورة ونشر على ساقيه العباءة التى لبسها فى موقعة مانجـــو ووضع الصليب الفضى على صدره ، بينما وقـــف الأب فيجنالى عند رأسه يتلو صلواته •

(*) ظهر من تشريح الجثة أن نابليون كان مصابا بالســـل الرئوى ويقرحه سرطانية فى المعدة • أما التهاب الكبـد الـذى عولج لأجله فكان نتيجة مناخ الجزيرة الحار • وقد طغت هـذه الفكرة على حقيقة مرضه فاكثر الأطباء من اعطائه المسهلات والمقيئات والمعرقات والحقن الشرجيـة والحمامات الملحية فضـاعفوا من آلامه وجعـلوا من جسمه حطاما باليا حتى أنه كان يصيح فى أطبائه مستغيثا : « دعونى أموت من الداء ، فهذا خير لى من أن أموت من الدواء • خلوا أدويتكم جانبا فانى لا أريد أن أصاب بعلتين : مرضى والمرض الذى تعطوننى اياه » •

وسرعان ما انتشر خبر وفاته فى انحاء الجزيرة ، فتدفقت الجماهير طوال ـ يوم ٦ ، ٧ مايو على المنزل مارين أمام جثمانه مودعين اياه الوداع الاخير ، وقد حسروا رؤوسهم المنكسة فى خشوع وحزن وحتى حاكم الجزيرة (السير هادسون لو) لم يتمالك أن يقول فى حزن : « لقد كان ألد اعداء بريطانيا وعدوى انا ايضا ولكنى أسامحه » ٠

وصحا الجو فى صباح الثامن من شهر مايو ، وسطعت الشمس واختفت السحب وهب نسيم منعش عليل على انحاء الجزيرة ، وازدحمت الطرقات بأهالى الجزيرة ليودعوا أسيرهم المحبوب الوداع الاخير ٠ وفى الساعة الثانية عشرة والنصف حمل الجنود النعش الى عربة جرتها أربعة جياد ٠ وكان يحيط بالنعش اثنا عشر جنديا وكانت مهمتهم حمل النعش فى الامكنة التى يحول الوحل والمطر فيها دون متابعة سير العربة ٠ وكان يتبع النعش مباشرة الاصدقاء الأخصاء وخدم المنزل ، وكانوا مطأطئى الرؤوس فى حزن وخشوع والم وعقبهم حاكم الجزيرة وقائد الحامية وكبار الضباط على ظهور جيادهم ومشى فى المؤخرة جميع اهالى الجزيرة سيدات ورجال وأطفال واصطفت على جانبى الطريق أفراد الحامية التى خصصتها الحكومة البريطانية لحماية الجزيرة اثناء سجن الامبراطور وكان عددهم يبلغ الفين وخمسمائة جندى ٠

.. وأخيرا وقف الموكب ، وحمل الجنود النعش على اكتافهم وساروا به فى طريق ضيق الى البقعة التى أوصى الفقيد بأن يدفن فيها ، ووضع النعش على حافة المقبرة ، بينما اخذ الاب فيجنالى يتلو صلواته .. وعند انـزال النعش الى القبر ، أخذت السفن الحربية الراسـية فى الميناء تطلق مدافعها تكريمـا للفقيد العظيم ، وكانت لم تنقطع عن ذلك طول مدة سير الجنازة مـن المنزل الى المقبرة .

ووضع لوح من الحجر بسيط فى مظهره على المقبرة وقد كتبت عليها الكلمات الآتية : ـ

نابليون : ولد فى أجاكسو ١٥ اغسـطس ١٧٦٩ وتوفى بسنت هيلانه ٥ مايو ١٨٢١ .

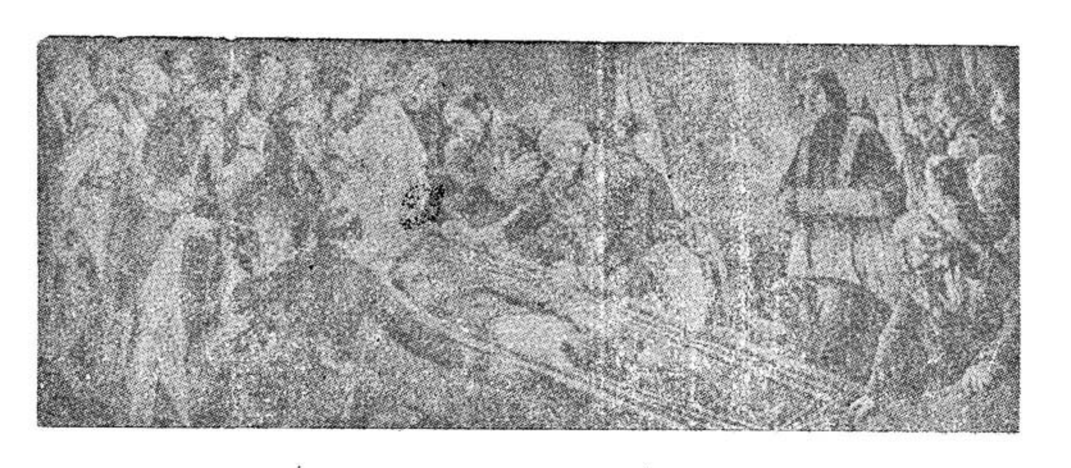
وفى يوم ٢٧ مايو رحلت الحاشية التى رافقته فى المنفى الى فرنسا ، وقبيل سفرهم ذهبـوا الى المقبرة وغطوها بالزهور والرياحين ، وبللوها بدموعهم التى لم يستطيعوا حبسها .

ولكن واحدا منهم ـ وهو السيرجنت هوبارت ـ رفض بتاتا أن يترك قبر سيده . فبقى بجانبه يزوره يوميا مدة تسعة عشر عاما ، حتى أستجاب العالم لصوت فرنسـا وسمح بنقل رفات الامبراطور الى ضفاف السين تحت قبة الانفاليد وعندها رافق هذا الخادم المخلص رفات سـيده حزين القلب مكسور الفؤاد ولكن راضى الضمير .

خاتمة المطـــاف

أوصى الامبراطور بأن يدفن على ضفاف السين بين أبناء الشعب الفرنسى الذى أحبه من كل قلبه • وكان هذا الأمل يبدو مستحيلا عند كتابته ، ولكن سرعان ما مرت الأعوام وتغيرت الظروف فما جاء شهر يوليو من عام ١٨٣٠ حتى قامت فرنسا قومة رجـل واحد وطردت آل البوربون من عرشها ووضعت التاج على مفرق (لويس فيليب) دوق أورليسنز •

وفي ٢٩ يوليو ١٨٣٢ توفي ابن نابليون الوحيد وكان عمره اذ ذاك واحـــدا وعشرين عاما فزال بموته كل أثر مباشر لذرية بونابرت • وأخذت فرنسا تتحرر تدريجيا من رقابة الحلفـــاء وسيطرتهم • فانتهز الفرنسيون فرصـــة الاحتفال بذكرى وفاة بونابرت فى اليوم الخامس من مايو عام ١٨٤٠ وقدموا التماسا للحكومة البريطانية يطلبون فيه رفات الامبراطور • وكان اللورد بالمرستون على رأس الحكومة البريطانية التى وافقت دون تردد فى خطاب ودى تمنت فيه أن يكون ذلك بداية عهد جـــديد بين الأمتين وأملت أن تدفن أحقاد الماضي في القبر المعد لتسلم رفات الامبراطور •



عندما فتح التابوت قبل نقل الرفات الى فرنسا التي احبها من كل قلبه

وفى اليوم الثانى عشر من شـــهر مايو أعلن رئيس الوزارة الفرنسية فى مجلس النواب الفرنسى أن الملك قد اصدر أمره الى الأمير جوانفيل بالسفر الى جزيرة ســـانت هيلانه لاستلام رفات الامبراطور • وأبحر الأمير ومرافقوه على ظهر سفينتين حربيتين وصـــحبه فى الرحلة الجنرال جورجود والجنرال برتران والكونت لاس كاساس وهـــم الذين كانوا فى معيـــة الامبراطور وهو فى المنفى • وقد أخذوا معهم تابوتا فاخـــرا من الابنوس المتين وكان كبير الحجم لدرجـــة كافيـــة ليحوى التابوت الذى دفن به الامبراطور حتى لاتزعج رفاته بنقلها من تابوت الى آخر • وكتبت على التابوت كلمة واحدة ، نابليون ، بحروف من الذهب •

ووصلت السفينتان الى الجزيرة فى يوم ٨ أكتوبر وقوبلتا بترحيب كبير من مدفعية الســـاحل وكذلك من السفن الانجليزية الراســـية فى المينـــاء • وكان يوم ١٥ أكتوبر يوافق الذكرى الخامســـة والعشرين لنزول الامبراطور الى سجنه فى سانت هيلانه ، فحدد ذلك اليوم بالذات لفتح قبره واستخراج رفاته • وفى منتصف الليل تماما اجتمع حـــول القبر جماعة من المهندسين الانجليز وشرعوا فى فتح القبر تحت اشراف حاكم الجزيرة وبحضور أعضاء البعثة الفرنسية • وبعد تسع ساعات من العمـــل الشاق المستمر أزيلت الأتربة والحجارة الصلبة من فوق

اللحد ولما رفعت البلاطة الصلبة من فوق التابوت أقيمت الصلاة ٠

ورفع التابوت فى سكون واجلال الى خيمة قريبة أعدت من قبل ٠ ولما فتحت التوابيت الثلاثة التى احتوت الرفات ـ وكان أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من القصدير ـ بدت الجثة وقد غطيت بطبقة من الحرير الاطلسى ٠ ولما رفع هذا الغطاء كانت دهشة الموجودين عظيمة لان تقاطيع وجه الامبراطور لم تتغير رغم مرور السنوات الطوال حتى أن معرفته لم تتعذر على الذين رأوه فى حياته وقد دل هذا على أن الاحتياطات التى اتخذت لحماية الجثة من الهواء والرطوبة والحرارة ، أفلحت الى حد كبير ٠ أما الملابس فقد أصابها بعض العطب وبدأ الامبراطور وكأنه نائم نوما هادئا ٠ ولم يستغرق التعرف على الجثة أكثر من دقيقتين أقفلت بعدها التوابيت الثلاثة ثانية ووضع الجميع فى التابوت الابنوسى الفاخر الذى أحضرته البعثة معها ٠

وكانت السماء تمطر وترعد ابان هذه العملية ، وقصفت مدافع الساحل تكريما لذكرى الامبراطور ومشى جميع أهالى الجزيرة وراء النعش أثناء نقله من القبر الى الميناء ٠ وكان النعش موضوعا على عربة تجرها أربعة خيول ويسير على كل من جانبها ثمانية من ضباط حامية الجزيرة ٠ وسار فى الموكب كل الموظفين الرسميين من

مدنيين وعسكريين • وطلب حاكم الجزيرة ــ وهو الذى خلف سير هدسون لو ــ رسميا من جميع رجال الجزيرة أن يرافقوا الجثة فى رحلتها الى الميناء • ورافقها أيضا جميع جنود الحامية البريطانية المرابطة بالجزيرة ، ورفعت الاعلام السوداء على جميع منازل جيمى تون ونكست الاعلام على الدور الرسمية والسفن الحربية •

وعلى رصيف الميناء وقف الامير جوانفيل ومن حوله الضباط الفرنسيون فى ملابسهم السوداء وعندما اقتربت العربة نكسوا رؤوسهم الحاسرة • ووقفت العربة على بعد خطوات منهم ، وتقدم حاكم الجزيرة وسلمهم جثة الامبراطور باسم الحكومة البريطانية • ونقل التابوت فى زورق صغير الى السفينة بينما كانت المدافع تقصف والعلم الفرنسى يرفرف فوقه • وهناك وضع فى كنيسة صغيرة كانت قد أعدت من قبل لهذا الغرض وأضيئت الشموع حوله ووقف لحراسته ستون جنديا ورفرف على النعش علم نفيس اشتركت فى صنعه السيدات الانجليزيات اللائى كن يقمن بسانت هيلانه •

وأبحرت السفينة فى اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر أى بعد مضى خمسة وعشرين عاما وثلاثة أيام من تاريخ وصول بونابرت الى الجزيرة ليمضى فيها بقية عمره ، وفى اليوم الثانى من شهر ديسمبر وصلت السفينة ميناء شربورج وعندها أرسلت المدافع من أفواهها احدى

وعشرين طلقة • ثم نقل التابوت الى ظهر الباخرة تورماندى حيث وضع على منصة عالية واحيط بالشموع المضيئة من كل جانب ووضع التاج الامبراطورى على وسادة فاخرة عند رأس التابوت ووقف الامير جوانفيل عند الطرف الآخر • وكان وضع التابوت بحيث يسمح للواقفين على ضفتى النهر برؤيته بجلاء ووضوح وهكذا سارت السفينة عبر نهر السين بحملها الثمين الذى خفق له قلب فرنسا وحيته الجماهير بحماس لا يوصف وقصفت المدافع من الجانبين طول الطريق ودقت الكنائس اجراسها الجنائزية • وكانت ضفتا نهر السين من (الهافر) الى باريس مكتظتين بالجموع التى لا حصر لها ولم ينقطع سيل الهتافات طول الطريق ، حتى وصل الموكب النهرى الى قرية كوربيفورا وهى تبعد مسافة أربعة اميال من باريس • وكان قد أقيم هناك تمثال كبير للامبراطورة جوزفين يمثلها وهى تستقبل زوجها العائد الى وطنه فاتجهت كل القلوب اليها ، ولم يفكر أحد فى مارى لويز التى كانت لاتزال على قيد الحياة تعيش فى عزلة تامة فى بارما •

وفى صباح اليوم التالى سطعت الشمس فى اشراق مبهج فصاحت الجماهير المتراصة (هذه شمس اوسترليتز) وبدأ الموكب سيره تحف به كل مظاهر العظمة والابهة • وكان شارع الشانزليزية وقوس النصر مزينين أبدع زينة وسارت العربة بين الاعلام والجماهير الحاشدة يجرها

سنة عشر حصانا أسود ويحيط بها الستمائة جندى الذين رافقوا الجثة أثناء رحلتها من سانت هيلانه ·

وعندما وصل الموكب الى الانفاليد كان فى انتظاره الملك لويس فيليب يحيط به كبار ضباطه · وهناك حمل النعش أثنان وثلاثون من حرس نابليون القدماء وساروا به يتقدمهم الامير جوانفيل الذى تقدم الى الملك قائلا : (مولاى اننى أقدم اليكم رفات الامبراطور نابليون) فأجاب الملك : (وأنا اتسلمها منك باسم فرنسا) ·

هل مات نابليون مسموما ؟

هذا سؤال طالما داعب خواطر محبى هذا البطـــل الكبير وعندما استعرضت حياته فى (سانت هيلانه) فى الكتاب الذى اقتبست منه تلك الصفحات لم اجد اشارة واحدة توحى فى نفسى مغامر الشــك فى مصير بونابرت حتى وقع فى يدى عدد من مجلة « كتابى » للكاتب المحقق الرصين حلمى مراد وبه تلخيص وتعليق بقلمه لكتـــاب بعنوان « هل مات نابليون مسموما » من « تأليف الطبيب السويدى » « ستين فور شوفورد » ٠

والمعلوم على أنه اثر وفاة نابليون فى ٥ مايو من عام ١٨٢١ راجت موجة من الشائعات فى ســـائر بلاد العالم تجــزم بأن الامبراطور لم يمت ميتة طبيعية ولــكن تلك الشائعات سرعان ما خمدت على أثر أذاعة مضمون محضر تشريح جثته الذى قرر فيه موقعوه ـ وهم خمسة من كبار الاطباء الانجليز ـ ان الامبراطور مات نتيجة لاصـــابته بسرطان المعدة ٠ وظل العالم مستقرا على هذا الرأى بصدد

★ مقتبسة من مجلة كتابى رقم ١٠١ للاستاذ حلمى مراد ٠

سبب وفاة نابليون حتى خرج الطبيب والمحقق السويدى ستين فورشوفود على العالم بنظرة جديدة مؤداها ان نابليون انما مات نتيجة تسممه بالزرنيخ تسمما بطيئا وذلك على نظرية فى كتاب مطول يقع فى ٢٦٠ صفحة كبيرة وهو الذى لخصه الاستاذ حلمى مراد تلخيصا مركزا متقنا بمناسبة مرور مائتى سنة على مولد نابليون فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ ولقد بلغ من دقة الدكتور انه حلل خصلة من شعر نابليون حصل عليها من أحد ورثة لويس مارشان خادم الامبراطور الخاص فى منفاه · وارسلها الى قسم الطب الشرعى بجامعة جلاسجو فاثبت التحليل الذى قام به الاستاذ الدكتور هاميلتون سميث العثور على نسبة كبيرة من الزرنيخ فى عينة الشعر التى ارسلها المؤلف وبالكتاب وثائق زنكوغرافية تثبت هذا الافتراض ·

والكتاب يجيب فى صفحاته على كثير من الاسئلة الهامة التى تتعلق بنهاية نابليون والتى من بينها :

١ ـ هل مات نابليون ميتة طبيعية أم مات مقتولا ؟

٢ ـ اذا كان قد مات ميتة طبيعية فهل كانت وفاته نتيجة اصابته بالسرطان أو بقرحة المعدة أو بداء الكبر ·

٣ ـ واذا كان قد مات مقتولا فبأى سلاح قتل ؟ ومن الذى قتله أو من المنفذ للجريمة وهل قتله حاكم الجزيرة بتحريض من الحكومة الانجليزية ام قتله احد اطبائه أم ان القاتل شخص ثالث والمحرض جهة ثالثة لم يخطر

على بال احد من قبل وتنتابك الدهشة عندما يوجه أصبع الاتهام فى النهاية الى ياور الامبراطور الجنرال مونتولون الذى وضع فيه نابليون كل ثقته وانه كان يعمل وفقـا لخطه مرسومة تنفيذا لتعليمات محكمة كانت تصدر اليه بانتظام فهو مرة يضع الزرنيخ فى طعامه فيغدو الامبراطور فريسة لازمات حادة متواصلة ، ثم تتحسن حالته وتنتعش نفسيته عند ايقافها حتى حان مـوعد بداية النهـاية المحتومة .

ففى يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٢٠ ، دخـل مرض الامبراطور مرحلة جديدة طويلة استمر خمسـة أشهر حتى أواخر شهر فبراير عام ١٨٢١ . وبعد هذه المرحلة طرأ تحسن عابر على صحة نابليون حتى اذا حل يوم ١٧ مارس ، عاد الى ملازمة الفراش ولم يقدر له ان يبارحه بعد ذلك قط .

ويقول « مارشان » فى وصف هذه الحقبة من حياة نابليون ان سيده صـار يجد مشقة كبيرة فى القيـام بنزهاته اليومية سواء بالعربة أو سيرا على الاقدام . وانه كان يعود منها دائما وقد استبد به التعب والاعياء ... وكان يشعر ببرودة شديدة فى قدميه ، فلا يسـتطيع تدفئتهما الا بدسهما فى اللفافات الساخنة ، التى كان يؤثرها على سائر وسائل التدفئة الاخرى ..

واستطرد « مارشان » يروى فى مذكراته كيف ان

نابليون حاول ذات يوم ان يستنشق الهواء بالتريض فى الحديقة أو القيام بنزهة قصيرة بالعربة ٠ لكنه ما ان وصل الى العربة حتى انتابه الدوار ، فاذا به يهوى الى الارض فجأة ، فهرع الخدم اليه وعاونوه على النهوض ثم اعادوه الى فراشه ٠

ولما استرد الامبراطور انفاسه ، نظر الى مارشان ، وكان يقف بجواره ، وقال له : (انك تردنى الى الحياة ٠٠ واحسب ان هناك ازمة فى الطريق ، أما ان تنقذنى ٠٠ أو تقضى على !)

ومنذ ذلك الحين ، بدأ مرض نابليون يتخذ صورة جديدة : فقبل ذلك ، لم تكن آلام المعدة واضطراباتها هى ابرز ما يعانى منه ، فاذا بها تصير ـ فجأة ـ ظاهرة تلح على نابليون ، ولا يكاد تفارقه ٠٠ ويبدو ان الجناة كانوا قد رأوا اذ ذاك ان الوقت قد حان كى يدخل الامبراطور المرحلة الاخيرة من حياته فقد راح يتقيأ بشكل عنيف متلاحق ، على نحو يدل على زيادة ضخمة فى مقدار السم الذى كان لا ينفك يجرعه منذ أمد طويل على غير علم منه ٠

وبعد سفر الدكتور « ستوكوى » كان لابد من تعيين طبيب الحامية الانجليزى الدكتور « ارنوت » استشاط « نابليون » غضبا ، ورفض ـ كعادته ـ قبول أى طبيب موفد من قبل حاكم الجزيرة ٠٠ ومضى الجنرال «مونتولون»

ـ ياور الامبراطور ـ حاول اثناءه عن عزمه · لكن جهوده باءت بالفشل ، فطلب الى كبير الخدم « مارشان » فى ليلة ٣١ مارس فيما لو سأله الامبراطور النصح بشأن رأيه فى تعيين الطبيب الانجليزى ، آن يؤيد هذا الاجراء بكل قواه « والا لما توانى الحاكم عن اقتحام غرفة الامبراطور حتى يستوثق من وجوده » ·

على أن ثمة أدلة عدة تؤكد ان « هدسون لو » كان على علم تام بأن نابليون طريح الفراش ، وان حالته الصحية سيئة للغاية ، مما جعله لا يفكر فى اقتحام غرفة المريض الكبير · ومن هنا يتضح ان « منتولون » لم يكن صادقا فيما ساقه من مزاعم امام كبير الخدم ، فما السر فى موقفه هذا ؟ وأى شىء دفعه الى سلوك ذلك السبيل الملتوى ؟

ان لرواية الجنرال « منتولون » ياور الامبراطور فى (سانت هيلانه) أهمية بالغة فى هذا الصدد اذ هى تساعد على القاء ضوء كبير على حقيقة المأساة التى اكتنفت ساعات « نابليون » الاخيرة :

من ذلك ان « منتولون » يقول فى مذكراته ان تشخيص الدكتور « ارنوت » لمرض الامبراطور تضمن ان المرض كان بالغ الخطورة ، وان المريض كان يشكو من احتقان حاد حول بطنه ·· فى حين ان الحقيقة كانت مغايرة لذلك ، اذ يؤخذ من مذكرات سائر الشهود الاخرين ان « ارنوت » لم يعتقد مطلقا ان « نابليون » كان فى حالة خطيرة ··

ويزعم الجنرال كذلك انه في يوم ١٠ ابريل عام ١٨٢١ ، فاتحه نابليون لاول مرة فى أمر وصيته وضرورة الانتهاء من كتابتها على وجه السرعة .. فلما حاول الياور اقناع الامبراطور بأن ليس ثمة ما يدعو الى هذا الذى يفكر فيه وانه سابق لاوانه اجابه نابليون فى اصرار : « بل سأكتب وصيتى غدا ، اذا استمرت حالتى فى التحسن » والذى حدث فى حقيقة الأمر ـ طبقا لما رواه شهود سانت هيلانه الآخرون ـ انه فى يوم ٣ ابريل كان « منتولون » نفســـه هو الذى فاتح نابليون فى ان أيامه قد أصبحت معدوده ، وان الوقت قد حان لكى « يرتب أموره » .

حتى اذا حل يوم ١٤ أبريل ، استدعى الامبراطور ياوره ، وقال له : « سأملى عليك اليوم رغباتى الأخيرة ، فلتعد الى عند الظهر » وعندما اقبل « منتولون (فى الموعد المحدد ، طلب اليه الامبراطور أن يغلق باب الغرفة ، ثم املى عليه وصيته لمدة ســـاعتين كاملتين دون توقف .. وأخيرا طلب اليه ان يقرأ ما كتب ، فلما فرغ الجنرال من القراءة ســـأله نابليون (هل تريد ان أوصى لك بنصيب أكبر ؟)

فأجابه بالنفى :

ومما سجله «منتولون» في مذكراته يتبين ـ في جلاء ـ انه قد حرص على تبرير ما حدا بالامبراطور الى تمييزه فى وصيته على « برتران » كبير الياوران فاذا هو يؤكد ان هذا

التمييز انما يرجـــع الى ان الامبراطور لم يكن ليرتاح الى « الآراء الارستقراطية » التى كان يعتنقها « برتران » ٠

وقد حاول « منتولون » ٠ ان يثبت كذلك انه ليس هو ـ كما أشيع ـ الذى سعى حتى جعل الامبراطور يحابيه في وصيته ، بل ان نابليون هو الذى اتخذ هـــذا القرار من تلقاء نفسه ٠٠

وأيا كانت الأسباب فالمؤكد ان منتولون قد حرص على تدبير الأمر بحيث لا يكون هناك أحد سواه بجوار نابليون في ســـاعاته الأخيرة !! ٠٠ وبذلك يصبح هو فى نظر الجميع الشاهد الوحيد الذى يعتد بشهادته بصدد الحدث الكبير ٠٠

لذلك يحق للمرء ان يتساءل : ترى ما الذى جعـــل (منتولون) يحرص كل هذا الحرص على ابعاد جميع أفراد حاشـــيته الامبراطور عن حجرة المريض المحتضر فى أيامه الأخيرة ؟ !! ٠

نهاية الآلام !!

وأخيرا : قدر لآلام الامبراطور ان تصل الى نهايتها ففى يوم ٤ مايو عام ١٨٢١ استيقظ نابليون من نومه وقد أحس بظمأ شديد يلهب حلقه ·· فلم يكد يتناول قليلا من الماء والنبيذ حتى لفظ كل ما شرب وانتابته شهقة حادة متواصلة · ثم لبث ساكنا بلا حراك ، لكنه سرعان ما أخذ يهذى ، ويتفوه بكلام متقطع وألفاظ غير مفهومة ·· وفى فجر اليوم التالى كان مستلقيا فى فراشـــه وقد راح فى غيبوبة تامة لا يأتى فيها بحركة تدل على انه لا يزل على قيد الحياة ·· باستثناء بعض تنهدات كانت تصدر عنه بين الفينة والأخرى فى ضعف ووهن ··

وفى الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين من مساء ذلك اليوم ـ ٥ مايو عام ١٨٢١ ـ وفى اللحظة التى كان فيها المدفع يعلن غروب الشمس واحتـــلال الحراس لمراكزهم اليومية لمنع الامبراطور من الفرار كان (نابليون بونابرت) يلفظ آخر أنفاسه ·

ومن تشريح جثة نابليون برزت فى جلاء حقيقة هامة على نحو لايدع مجالا لاى شك هى ان الامبراطور كان قد

أصيب بالفعل بنزيف خطير فى المعـــدة ·· فلقد أثبت التشريح ان المعدة كانت تحوى كمية كبيرة من ماء أشبه بحثالة حبات البن · ولم يكن هذا النزيف المعدى ناجما عن أية اصابة سرطانية ولا عن أية قرحة عادية فى المعدة وانما جاء نتيجة تآكـل كامل فى الجـدار المعـدى وهى ظاهرة لايحدثها الا تسمم زئبقى خطير · !!

·· واذن فالسبب المباشر الذى أفضى الى وفاة نابليون كان هو التســمم بمادة الزئبق ·· ومع ان الجثـة كانت تحوى آثارا واضحة لتسمم مزمن الزرنيخ الا ان هذه الاثار لم تكن من الاستفحال بحيث تؤدى الى موت سريع ·· وكان واضحا بالاضافة اليهما ـ وجود حالة تســمم حادة جديدة بالزئبق ·· !!

وقد منع الحاكم الانجليزى تحنيط الجثـة رغـم ان الامبراطور كان قد أوصى بتحنيط قلبه وأرسالة الى زوجته (مارى لويز) وعندما أراد (انتومارشى) الاحتفاظ بمعدة نابليون كى يحملها معه الى أوروبا لاجـــراء ابحاث عليها بالاشتراك مع زملائه رفض طلبه ولم يصدر الرفض هــذه المرة من الحاكم بل صــدر من (برتران) و (منتولون) رفيقى نابليون وتابعيه !! ·

ثم أصدر الحاكم أوامره للاطباء الانجليز بعدم السماح بانتزاع أى شىء من ـ الجثمان ·· فوضعت المعدة والقلب

فى اناءين فضـــيين مملوءين بالكحول ٠٠ ثم لحم الاناءان باحكام ووضعا فى التابوت ٠

وقد أودع جثمان نابليون تابوتا من الحديد الابيض أغلق بابه باللحام ٠٠ ثم أدخل فى تابوت ثان من خشب المهوجانى وضع بدوره فى داخل تابوت ثالث من الرصاص وكان الغلاف الخارجى تابوتا رابعا من خشب المهوجانى ثبت غطاؤه بمسامير فضية ولم يقرر الانجليز تخفيف الحراسة على الجثة الا بعد ان تم لحام التابوت الرصاصى ٠

وأختير للمقبرة مكان يقع على مقربة من جدول مائى رقراق ٠٠ كان يشرب منه الامبراطور المريض كل يوم ٠٠ وقد اطلق على هذه البقعة منذ ذلك الحين ٠٠ اسم (وادى زهرة الجيرانيوم) ٠

وبعد تسـعة عشر عاما من وفاة نابليون استخرج التابوت من المقبرة وأعيد فحص الجثة للوقوف على ما عساه يكون قد طرأ عليهما من تغييرات ٠ وكم كانت دهشـة الطبيب الذى اشرف على العملية حين تبين ان الجثة كانت سليمة تماما ولم تتعرض لاى تحلل أو عفن بالرغم من كل ما تضمنه محضر تشريح الجثـة عقب الوفاة ٠٠ على ان الطبيب ما لبث ان عزا هذه الظاهرة الى نون المقبرة واحكام التوابيت التى استطاعت ان تصون الجثمان وتحافظ عليه ردحا طويلا ٠٠ !!!

والواقع ان هناك تفسيرا علميا هاما ٠٠ يعلل الصورة السليمة التي وجدت عليها رفات نابليون ٠٠ رغم عـــدم صونها بالتحنيط ٠٠ ذلك انه من المعروف طبيا ان جثث الأشخاص الذين يلقون حتفهم نتيجة تسممهم بالزرنيخ ٠٠ تبقى على حالتها وتحتفظ بكيانها طويلا ٠٠ بشـــكل يدعو الى الدهشة والاستغراب ٠٠ !!

وهكذا يبدو جليا اليوم بصورة قاطعة ان (نابليون بونابرت) قد مات مسموما وان تهمة الاغتيال التي كان هو قد جهر بها أمام التاريخ تستند الى أسس من الحقيقة والواقع ٠٠ بحيث يمكن الجزم بانه انما قتل قتلا بطيئا ٠٠ محكما مع سبق الاصرار ولكن المهم في الأمر هو تبين ما اذا كان الانجليز هم الذين قتلوه ٠٠ أم سواهم ٠٠

لو احتكمنا الى المنطق فانه لا يبـــدو ان الحـكومة الانجليزية كان من مصلحتها في شيء القضاء على نابليون ٠٠ ولعل الحاكم (هدسون لو) قد أصاب كبد الحقيقة حين ذكر ان بقاء أسير (سانت هيلانة) في قبضته انما كان يزود الحكومة الانجليزية بمفتاح يجعلها تتحكم في توجيه التيارات السياسية الكبرى ٠٠ فقد كان نابليون بمثابة (رهينة ثمينة) بات في مقدور الانجليز استغلالها ضد الدول الاخرى الأعضاء في (الحلف المقدس) وخاصة ضد فرنسا ٠٠ وطالما كان الانجليز (واضعين أيديهم على الامبراطور ٠٠ كان من الميسور عليهم التفاوض مع (باريس)

واملاء شروطهم عنيها ولاسيما فيما يتعلق بمسألة الرسوم الجمركية ..

وثمة سبب آخر يهدم من الاساس فكرة تدبير (الحكومة الانجليزية (لاغتيال نابليون : اذ ما ان اعلن نبأ نفى الامبراطور المعزول الى جزيرة (سانت هيلانه) حتى تحول الرأى العام الانجليزى عن موقفه السابق .. المعادى للزعيم الفرنسى الى موقف ينطوى على العطف عليه والتأييد له بل واعتباره بطلا مغوارا جديرا بالتمجيد والخلود ولما علمت (لندن) بوفاة الامبراطور انتشرت الملصقات فى كل مكان تدعو جميع المعجبين بالقائد الفرنسى الراحل الى ارتداء ملابس الحداد .. بل لقد حدث ذات مرة أثناء سنوات الأسر أن عرض أحد الضباط الانجليز أن يمهد أمام نابليون سبيل الفرار .... فلما أبدى أحد اتباع الامبراطور دهشته لهذا التصرف الذى عرضه الضابط بغير مقابل ، أجابه هذا بقوله : (كيف تقول ان ذلك بغير مقابل) ياسيدى ؟! .. ألم تحسب حسابا للشرف الذى سيعود على من جراء اقتران اسمى بانقاذ بونابرت ؟ .)

ومن ثم لم تكن الحكومة الانجليزية لتجسر حتى ولو رغبت فى ذلك على ان تمس الامبراطور بشىء على الأقل بدافع الخشية من (رد الفعل) لدى الرأى العام الانجليزى الذى كان نابليون يتمتع بينه بشعبية حقيقية لا يسهل محوها .. !! .

على ان هذا الموقف من جانب الحكومة البريطانية كان يختلف على خط مستقيم مع موقف حكومة أسرة (البوربون) المالكة فى فرنسا فقد كان الوضع بالنسبة لهذه الاخيرة على هذا النحو : طالما كان نابليون على قيد الحيـــاة كانت الملكيـــة الفرنســـية فى خطر دائم ومعرضـــة للانهيار فى اية لحظة .. حتى لقد كانت الحكومة الفرنسية تشعر بانزعاج بالـــغ خشية ان يتهاون الانجليز فى حراســـتهم للامبراطور الاسير !! ولعل هذا ما دفع وزير خارجية فرنسا فى ذلك الحين الى ان يقول للسفير الفرنسى فى لندن (لو قدر لنابليون ان يهرب من جزيرة (سانت هيلانة) لكان هـــذا سببا فى اضطرابات لاحد لها فى وطننا التعس .. وانه لمن المحزن حقا ان يبقى هذا الرجل بين أيدى شعب قد ينجم عن تغيير حكامه تدبير مؤامرة تفضى الى اعادة نابليون الى مسرح الاحداث العالمية مرة أخرى) ..

وكان لفرنسا مبعوث خاص فى (ســـانت هيلانة) يدعى (الماركيز دى مونشينو) وكان رجلا معروفا بعدائه الشديد لنابليون .. على انه كان على درجـــة من الحماقة وضيق الافق .. وضآلة التفكير يستبعد معها ان يكون قد قام بأى دور رئيسى فى مأساة ســـانت هيلانة .. ولعل شخصا آخر فى فرنســـا كان يقف وراءه ليمسك بجميع الخيوط هو (تاليران) وزير خارجية نابليون الســـابق الذى انقلب عليه منذ عام ١٨٠٩ وأعد قرار مؤتمر (فيينا)

القاضى بعزل نابليون عن الانسانية . بل و (قتله) اذا استلزم الأمر !!

على ان هناك واقعتين تبرئان ساحة (دى مونشينو) وتبعدان عنه تهمة الاشتراك فى وضع السم للامبراطور أولاهما انه لم يكن فى وسع المبعوث الفرنسى الاقتراب من (نابليون) أو مقابلته على حين ان دس السم كان لابد ان يتولاه رجل يعيش على مقربة من الامبراطور بصفة دائمة والواقعة الأخرى ان عملية التسميم كانت قد بدأت بالفعل قبل وصول (دى مونشينو) الى الجزيرة اذ انه وفد الى سانت هيلانة بعد أربعة أشهر من ظهور أول أعراض التسميم على نابليون ..

وليس من شك فى ان قاتل نابليون كان يقيم فى سانت هيلانة منذ أواخر شهر نوفمبر عام ١٨١٥ ولابد انه كان على اتصال بالامبراطور أثناء مراحل المرض المختلفة وكان فى مقدوره ان يكون موجودا فى غرفة نابليون فى الوقت الذى كان فيه الجميع بعيدين عنها .

ولم يكن فى سانت هيلانة سوى أربعة أشخاص تنطبق عليهم هذه الظروف وهم الجنرال (منتولون) ياور الامبراطور ومارشان كبير الخدم و (نوفيراز) و (سان دينيس) الخادمان .. ومن هؤلاء الأربعة يجب استبعاد الثلاثة الاخيرين الذين كان حبهم وولاؤهم

للامبراطور فوق الشبهات كما دلت القرائن والملابسات على استحالة ارتكابهم للجريمة ٠٠ فلم يبق سوى الجنرال الكونت (منتولون) ياور نابليون الذى تدينه الملابسات وتنحصر فيه الشبهات ويبدوا انه اضطر الى التوقف عن دس السم للامبراطور حين تولت حكم فرنسا وزارة (ديكاز) الذى كان رجلا معتدلا سبق له العمل فى خدمة والدة نابليون وكان يكن لها تقديرا واعجابا بالغين ٠٠ وهكذا تحسنت صحة بونابرت حتى بدأ كانه شفى تماما خلال الفترة من أكتوبر ١٨١٩ الى أكتوبر ١٨٢٠ وهى المدة التى بقيت فيها وزارة (ديكاز) فى الحكم ٠٠ وكلها ملابسات توحى بمسئولية أسرة البوربون وحكومة فرنسا عن استخدام عميلها (منتولون) للقضاء على حياة غريمها نابليون ٠

ومن الملابسات الأخرى التى تزيد التهمة التصاقا ب (منتولون) ان صحة نابليون تحسنت أيضا فى مناسبة أخرى : اذ لم يكد يعلن اعتزامه تعديل وصيته الأولى التى كان قد ترك فيها أنصبة متساوية لاتباعه حتى طرأ تحسن واضح على صحته استمر طوال الفترة التى قضاها نابليون ومنتولون فى اعداد الوصية الجديدة التى خرج منها منتولون بأكبر نصيب من ميراث الامبراطور ٠

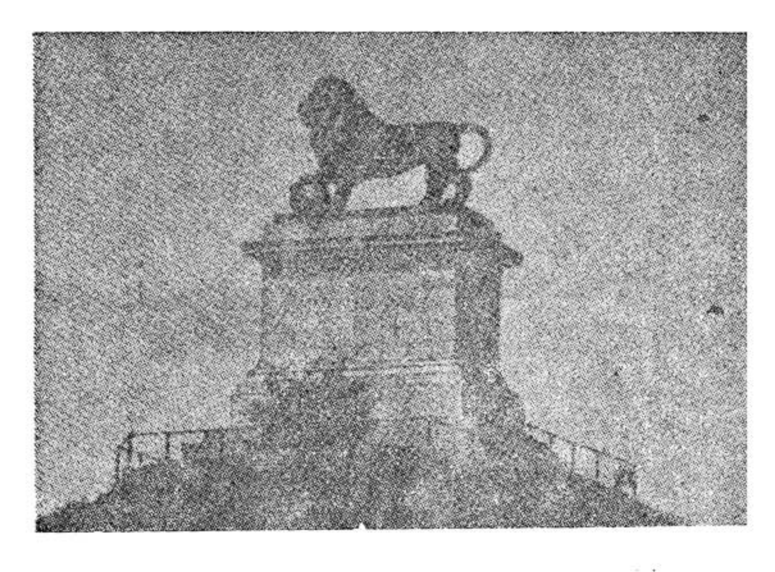
وعندما فرغ نابليون من املاء وصيته وتوقيعها التفت الى منتولون قائلا : (والان يا بنى اليس من المؤسف حقا

الا يموت المرء بعد ان دبر شئونه على هذه الصورة الرائعة فلم يكد يحل مساء ذلك اليوم نفسه حتى أصيب الامبراطور بنوية حادة خطيرة ، صارت تتفاقم يوما بعد يوم حتى لفظ أنفاسه الاخيرة بعد أسابيع ..

ومما يزيد فى الصاق التهمة بالجنرال منتولون انه أوحى فى مذكراته بأن نابليون مات بالسرطان فقد زعم فيها أن الأمبراطور بدأ يفقد بدانته بشكل ظاهر منذ أوائل فبراير ١٨٢١ وان معدته بدأت تنزف دما منذ ١٧ مارس من نفس العام .. فى حين ان هذه الاعراض لم تظهر عليه حقيقة الا فى أيامه الأخيرة .. كذلك زعم ان نابليون كان يقوم بنزهات طويلة على صهوة جواده فى فترة كانت ساقا الامبراطور خلالها بشهادة الجميع من الضعف والهزال بحيث لا تكادان تقويان على حمله بسبب البرودة القاسية التى كانت تسرى فيهما والتى هى من أعراض التسمم البطىء ... وقد أغفل الياور الاشارة الى هذه البرودة فى مذكراته رغم انه تحدث عنها الى حاكم الجزيرة (هدسون لو) معللا اياها بمرض فى القلب .. وعندما نشر منتولون مذكراته فى عام ١٨٤٦ كان جميع شهود سانت هيلانة قد لاقوا ربهم باستثناء واحد فقط هو (مارشان) كبير الخدم فكتب الاخير فى مذكراته يقول ان ذاكرة منتولون قد (خانته) فى عدد كبير من النقاط الهامة وانه وعده باصدار طبعة جديدة منقحة من مذكراته . بالتعاون معه .. لكن المنية عاجلت (منتولون) قبل ان يحقق وعده ..

على ان هذه القرائن كلها ليست أكثر من شبهات لاتمكننا من (الجزم) بأن (منتولون) بالتحديد هو القاتل ·· كما يتعذر تحديد (المحرض) الذى سخر القاتل للقضاء على حياة نابليون ··· وان أمكن القول بأن ساسة أوربا من أعضاء مؤتمر (فيينا) هم جميعا (محرضون أصليون) لانهم أصـــدروا قرارا بحرمان عدوهم اللدود من (حماية القانون) ··· أما عن الشخص الذى استخدم فى (تنفيذ) الجريمة فلعل الأيام تساعد على كشف النقاب عنه بصورة مؤكدة ··· بفضل جهود المحققين وسعيهم الدائب للتأكد منه ·

أما حاكم جزيرة (ســـانت هيـــلانة) الانجليزى هدسون لو ، الذى اتهمه نابليون فى كل مناسبة بالسعى الى قتله ، فتكاد جريمته تنحصر فى الخشونة وسوء المعاملة، والطريقة الخرقاء التى نفذ بها تعليمات حكومته بشـــأن حراسة الأسير الخطير ، وقد عاقبه الشعب الانجليزى نفسه على ســـوء تصرفه ، فحفلت مذكراته بالأنين المتواصــــل والشكوى المـــرة من المعاملة السيئة التى لقيها فى انجلترا بعد عودته من (سانت هيلانة) · فلقد أراد المثول بين يدى الملك جورج الرابع ، لكن أمين القصر استقبله فى خشونة بالغة وأبلغه أن الملك يرفض مقابلته · وحدث بعد ذلك أن طلب الانضــــمام الى نادى الضباط ، الا أن طلبـــه رفض باجماع الأصوات · وكان فى كل مكان يمضى اليه يقابل



على قمة الهرم العالى كسيت جوانبه بالسندس الأخضر وقف
هذا الأسد كرمز لمعركة واترلو

بعاصفة من السباب والشتائم حتى لقد أطلق عليه الانجليز وصف « القاتل » ، مما حدا به فى النهــــاية الى مغادرة انجلترا والرحيل الى سيلان •

ولكنه لم يجد فى (سيلان) الاستقبال الذى كان يحلم به ، فسافر الى (بومباى) ، ثم غادرها الى جزيرة (موريس) ، فوصل الى هناك في مايو ١٨٢٨ •• وذات يوم خطر له أن يذهب الى أحد المسارح فتلقى (تحذيرا) بأنه اذا نفذ ما اعتزم فان جميع النظارة سيغادرون القاعة عائدين من حيث أتوا •• فلما أبحر أخيرا راجعا الى بلاده ، تبعته جموح حاشدة راحت تصبح مزمجرة وهى تشير اليه : « أنظروا الى جلاد (سانت هيلانة) •• اشنقوا المجرم •• الى قاع البحر أيها الوغد •• » • حتى لقـــد عمد ياوره الخاص الى تحطيم سيفه على رؤوس الأشهاد ، لاعنا الظروف التي وضعته تحت امرة شخصية أصبحت موضــع ازدراء الناس جميعا •

وحين وصل (هدســـون لـــو) الى انجلترا حاول الحصول على وظيفة حكومية ، ولكن دون جدوى •• فلما أعياه السعى قرر فى النهاية الانزواء فى احدى المـــدن الصـــغيرة ، حيث عاش بقية أيامه متخفيا تحت اســـم مستعار •

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٢٣١٦

ISBN ٩٧٧ ٧٣٥٦ ٣٢ ٣

كتب كثيرة صدرت عن « نابليون بونابرت » وسوف تصدر كتب كثيرة اخرى .. لأن سيرة هذا القائد منذ ان كان ضابطا صغيرا فى الجيش الفرنسى الى أن انتهت حياته بين أيدى الانجليز فى المنفى مرورا بكل غزواته الحربية . سوف تبقى مادة مثيرة للكتاب والمؤلفين .. ومنها هذا الكتاب الذى ينشر بالعربية لأول مرة .

١٥ قرشا